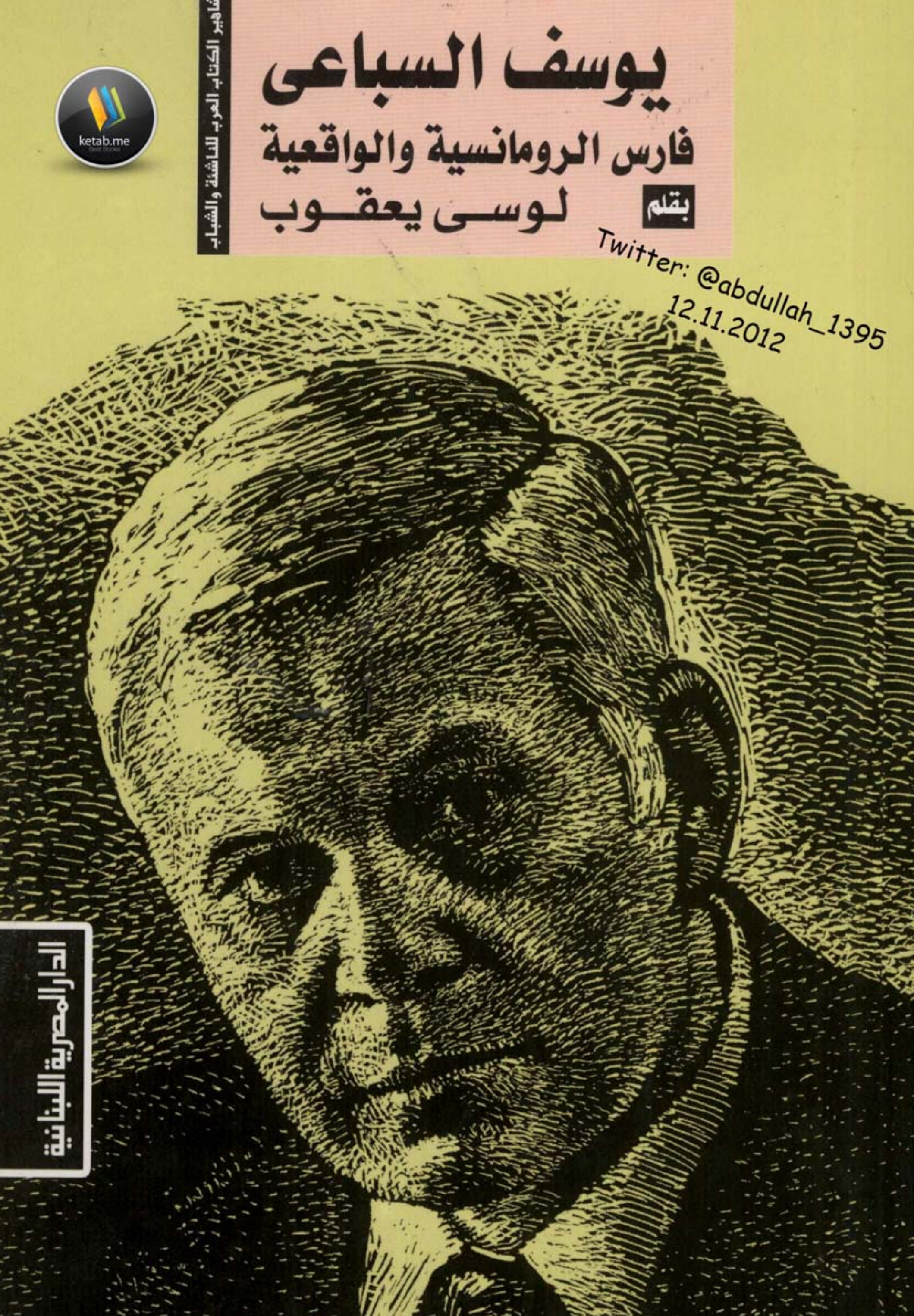


يوسف السباعى
فارس الرومانسية والواقعية
بقلم لوسى يعقوب
شاهير الكتاب العرب للناشئة والشباب
ketab.me
Twitter: @abdullah_1395
12.11.2012
الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الكتاب العرب

للناشئة والشباب

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

هذه السلسلة تقدم كبار الكتاب والمفكرين ـ قديمًا وحديثًا ـ فى كل بلدان الأمة العربية.. للناشئين والشباب. على اعتبار أن فى حياة كل أمة لحظات فاصلة، وكُتَّابا هم ضمير شعوبها. ومن هؤلاء تتحدد معالم عظمة الأمة فى اللحظات الفاصلة من تاريخها.

وهذا هو الدافع الحقيقى وراء إصدار هذه السلسلة.. أن تحتفى بالكتاب والمفكرين الخالدين من أبناء الأمة العربية، مؤكدة أننا نمتلك القدرة على البقاء بما نملك من قوة معنوية هائلة متمثلة فى مواقف وأعمال هؤلاء الكتاب والمفكرين.

ولا يعنى احتفاؤنا بهؤلاء العظماء من أبناء الأمة العربية أننا نسترجع الحديث عنهم فى حكايات وحواديت ساذجة.. فهذا مالم نقصده، إن هدف هذه السلسلة هو أن تقدم للناشئين والشباب العظمّة الإنسانية ممثلة فى هؤلاء الكتاب والمفكرين العرب. فنضرب لهم الأمثال من خلال دراسة حياتهم وأعمالهم ومواقفهم، عسى أن يترسموا خطاهم فى الطريق القويم بما يتحدد أمامهم من معالم، وما يتضح لهم من دروس.

وعلى هذا فالسلسلة تحرص علي أمرين:

1- أن نتوخى فى سيرة المحتفى به مشوار العظمة وكيف كانت؟

بمعنى أن نقدم هذه الشعلة المقدسة فى يقين صاحبها، والجهود المضنية التى بذلها من أجل ذلك، وعندما يتحقق لنا ذلك من خلال الدرس والبحث فإننا نضع أما الأجيال قيمة الجهد الإنسانى الجاد، وكيف تكون نتيجته ـ وتلك غاية فى حد ذاتها ـ فأحيانا يرى الناس بريق العظمة دون الوقوف عند الأسباب التى صنعت هذه العظمة.

2- أن تتوخى هذه السلسلة فى سيرة الكاتب أو المفكر الذى تتناوله استدعاء شريحة بكاملها من تاريخنا الحضارى بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية. تتأملها بالرصد والدراسة والتحليل المبسط، والأسلوب السهل الممتنع ـ وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال الجديدة من الوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتنا العربية، خاصة ونحن فى حاجة إلى تأصيل هذا الفكر الذى انتصر فى يوم من الأيام.. لنستأنس به فى خضم التحديات التى تواجهنا فى عالم اليوم، والتى تحتم علينا أن نتسلح بالعلم والمعرفة.

هذا ما نرجوه ونأمله من إصدار هذه السلسلة. والله الموفق.

"الناشر"

مقـــدمة

انطبع فى ذهن الكثيرين، كما فى ذهنى أنا أيضًا ـ قبل دراسة وتحليل أعمال السباعى الأدبية ـ أنه كاتب رمانسى.. وذلك بعد أن اختلطت معالم شخصيته الفريدة فى نوعها.. بشخصيات قصص الحب الرومانسى، التى كثيرًا ما عالجها معالجة رومانسية ملتزمة بفترة زمنية محددة.. وكان الحب فيها يطغي على معالم الحقيقة، ليضفى الخيال رونقه الشفاف على أبطال وبطلات قصصه.

لكن هؤلاء الكثيرين نسوا، أو تناسوا، كيف امتزج هذا الخيال بالواقع، وكيف لجأ يوسف السباعى إلى الخيال ليفسر به الواقع ويحلله، ويعلو به إلى المثالية المطلقة فى الحياة. ونسوا أو تناسوا كذلك، كيف عالج يوسف السباعى مشكلات وقضايا الوطن، وأحداث الساعة، وتغلغل فى شرايين المجتمع، يصوره ويعرض عيوبه ويعالجها، وما كانت رومانسيته المزعومة إلَّا ستارًا يغلِّف مثاليته الفائقة، لتختلط هذه المثالية مع الرومانسية.. ثم لتظهر فى صورة المثالية التى ينشدها فى إطار من الرومانسية الخالصة..!!

وأنا هنا أسأل:

هل من طبيعة الشخصية الرومانسية أن تتقلد مناصب قيادية؟

تستلزم الحزم وفنية الإدارة، واتساع القوة والإرادة والشخصية القيادية؟

هل من طبيعة الشخصية الرومانسية أن تصدر القرارات؟ وأن تعالج وتداوى جراح الوطن وآلام المجتمع؟ بمقالات سياسية تحفز الهمم وترفع الروح المعنوية للشعب؟

هل من طبيعة الشخصية الرومانسية الانضباط والوعى، وتحكم العقل والمنطق وإصدار القرار فى الوقت المناسب؟

أعتقد أن الشخصية الرومانسية، هى تلك الشخصية التى تنسلخ عن واقعها، وتعيش فى برجها العاجى، فى دنيا خلقتها لنفسها برومانسيتها وأحلامها، لتترجمها فى كتاباتها الرومانسية الحالمة فقط.

إن يوسف السباعى أديب من أدباء الحياة، نراه فى "**السقامات**" ونراه فى "**أرض النفاق**".. معالجًا للمجتمع يصوِّره بريشة فنان، تمامًا كما نراه فى (**يا أمة ضحكت**)، فهو إذن أديب لا ينتمى إلى مذهب معين سوى "مذهب الحياة". وهو إذن.. الفنان الحق، الذى يصور هذه الحياة بكل ما فيها من علاقات إنسانية وعيوب اجتماعية، تمامًا كما يمر بالتجربة الوجدانية ليصور فيها أدق معانى الحب والعواطف البشرية.

و"يوسف السباعى" يكتب من وحى شفافية روح، روح الكاتب الفنان، الفيلسوف الضاحك، الذى يرقى إلى سماوات اللانهاية، ليبحث فيها عن الحقيقة، الحقيقة فى الموت، والحقيقة فى الحياة، وعن مصير جسد ومصير روح، كان يهيم ويطير، ويسبح، ويخلع جسده،

ويطفو بروحه فى العالم الآخر، متخيلاً ما يكون عليه هذا العالم الخفى من حقيقة مجهولة.

ولقد سبح فى عوالم الفلك، ليتصور ويصف ويصور الحقيقة الوحيدة فى حياة الإنسان، ألا وهى "الموت". يصفها بكل أبعاد النفس الرائقة الشفافة، وهو مع ذلك، لا يخاف الموت ولا يخشاه، بل ينتظره ويبحث عنه ويواجهه فى تأمل ساخر، فما به من خشية ولا رهبة منه..! فالحياة والموت عنده سواء، مزج تام بين الحياة والموت. ومزج تام بين الرومانسية والواقعية، ليخرج لنا فى النهاية بفلسفة عميقة ضاحكة من هذه الحياة.!! ويا أمة ضحكت!!.

لوسى يعقوب

الفصل الأول

حياة السباعى الشخصية والأدبية

من الظلم البيِّن للراحل الشهيد يوسف السباعى، تحديد حياته وإنتاجه الضخم، فى الأدب، أو الفكر، أو الصحافة، أو الثقافة تحت مسمى واحد، هو: "فارس الرومانسية" صحيح أن القارئ لأعماله القصصية والروائية ـ وهى التى دخل من بابها الـحياة العامة ـ لا يستطيع أن يفصل جزءًا منها عن المعنى الرومانسى بأجلى معانيه، حتى يكاد هذا القارئ يجزم بأن هذا الكاتب المبدع ما خُلِقَ إلَّا للكتابة الرومانسية وحدها وذلك لرقة أسلوبه، وهو الأمر الذى سيطر على كتابات بعض الكتّاب والكاتبات، فكان مسمى "السباعى فارس الرومانسية" عنوانًا لها، حيث يشكل هذا المعنى الرومانسى معلمًا بارزًا من معالـم حياته الشخصية، والأخرى الأدبية، حيث كتب فيها أعمالاً تعتبر من أبرز نماذجها فى الرواية، وغير ذلك فى مجموعاته القصصية، حـين كان الـجانب الرومانسى غالبًا عليـها، مصبوغًا بصبغتها، لكن فى الوقت نفسه، نجد جـزءًا كبيرًا منها ينتمى أيضًا إلى الواقعيـة بأجلى معانيها.

لذلك فإن القارئ لأعمال السباعى الروائية والقصصية، ولسيرة حياته بوجه عام، ولصفحات هذا الكتاب على وجه الخصوص، سيحكم بأن سيرة السباعى الشخصية، وحياته الأدبية تجمع بين

الأمرين معًا: الرومانسية والواقعية. لأنه إذا اقتصرت الحياتان معًا الشخصية والأدبية على معنى واحد هو الواقعية، فأين يمكن وضع ما تمثله الرومانسية؟ وإذا اقتصرت التسمية على الرومانسية وحدها فأين يمكن وضع ما تمثله الواقعية؟

ففى الوقت الذى نجد أن نشأته الأولى وبداية حياته الدراسية، وحياته العملية انتظمتها الحياة العسكرية، إما طالبًا فى الكلية الحربية، أو ضابطًا بين صفوف الفرسان فى الجيش، وامتداد هذه الحياة العملية بعد ذلك فى مهام ومسئوليات اضطلع بها مثل: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ونادى القلم، ونادى القصة، وجمعية الأدباء، واتحاد الكتاب المصرى، واتحاد الأدباء والكتاب العرب، واتحاد كتاب آسيا وإفريقيا، وإختياره رئيسًا لتحرير ومجلس إدارة بعض الصحف والمجلات، ووزيرًا للثقافة والإعلام وقبل هذا وبعده، كان بمثابة عين ثورة 1952 بين جموع المثقفين يذلل العقبات، ويحل المشكلات بين السلطة والمثقفين.. الأمر الذى جعل المفكر الراحل توفيق الحكيم يلقبه برائد الأمن الثقافى.

كل هذه المهام والمسئوليات، تمثل الـجوانب الواقعية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ودلالة، يـحدث هذا فى الوقت الذى نقرأ إنتاج حياته الأدبية فنجدها تميل أحيانًا إلى جانب رومانسى، قد يكون بعيدًا كل البعد عن دراسته وحياته العسكرية أو حياته العملية.. اللهم إلاَّ بعض ما يسجله فى بعض مؤلفاته، حيث تغلب عليه بداياته الرومانسية فى الكتابة، فنراه يسجل ذلك فى عمل قصصى أو روائى.

وعلى هذا الأساس.. إذا نظرنا إلى حياته فى الكتابة نظرة واحدة، فإننا نلمح الجانب الرومانسى والواقعى معًا، فلا يمكن إغفال جانب على حساب آخر.

فنلمح هذه الرومانسية فى ثلاث روايات بارزة من رواياته هى: "**إنى راحلة**" و"**بين الأطلال**" و"**فديتك يا ليلى**" فى الوقت الذى نلمح فيه الجانب الواقعى فى بقية إبداعاته الروائية والقصصية بشكل واضح.

ولهذا يمكن القول بإطمئنان: إنه من الظلم تحديد اسم يوسف السباعى وإنتاجه الأدبى، وسيرة حياته الذاتية، تحت مسمى واحد هو "فارس الرومانسية". بل ينبغى أن يكون هذا الاسم وما قدم من إنتاج أدبى وثقافى وفكرى، وما قام به من مسئوليات ومهام جسام. لأكثر من أربعين عامًا يشمل الجانبين معًا الرومانسى والواقعى، وأن يكون أى مسمى عنه هو "فارس الرومانسية والواقعية" وهو المسمى الذى اخترناه عنوانًا لهذا الكتاب.

وقد يحتاج اختيارنا لهذا المسمى الذى يجمع بين الأمرين معًا، إلى نوع من الاختبار، ولن يكون ذلك إلاَّ من تتبع سيرة حياته فى جانبها الشخصى، والآخر الأدبى منذ يوم ولادته إلى يوم استشهاده.. حتى نتبين بيقين ليس بعده أى شك، أن السباعى كان حقًا وصدقًا "فارس الرومانسية والواقعية".

فمنذ أن ولد فى العاشر من يونيو عام 1917، تفتحت عيناه على مكتبة والده الأديب "محمد السباعى"، أحد رواد النهضة الأدبية

الحديثة، حيث كان يكتب المقال والقصة، ويقوم بالترجمة والتعريب لعيون الأدب العالمى، ويحملها يوسف السباعى الابن إلى دور الصحف والنشر المختلفة. ومن هنا كان تأثره بوالده الذى كان أول مَنْ قرأ له من الرواد، لتتولد لديه الموهبة الإبداعية التى صاحبته إلى آخر أيام حياته. فيكتب أول قصة فى حياته وهو لا يزال شابًا صغيرًا، بمجلة مدرسة شبرا الثانوية، ويكون عنوان هذه القصة **"فوق الأنواء"**، الأمر الذى تتنبه له إدارة المدرسة فتجعله مخرجًا لهذه المجلة ومشرفًا على مادتها التحريرية، ليتبع هذه القصة بأخرى عنوانها **"تبت يدا أبى لهب وتب"** التى نشرتها له مجلة **"مجلتى"** فى أوائل عام 1935 وهو فى السابعة عشرة من عمره.

وتتفتح بعد ذلك أبواب النشر المُغلقة أمامه، ليجد نفسه كاتبًا لقصة العدد بمجلة **"مسامرات الجيب"** كل أسبوع. ومن مجموع ما نشر له من قصص وروايات، نجد له اثنتين وعشرين مجموعة قصصية، وست عشرة رواية أولاها **"نائب عزرائيل"** وآخرها **"العمر لحظة"** كما ألف للمسرح أربع مسرحيات هى: **"أم رتيبة"** و**"وراء الستار"** و**"جمعية قتل الزوجات"** و**"أقوى من الزمن"** كذلك كتب عشرة مؤلفات هى عبارة عن مقالات له منشورة فى الصحف والمجلات، وكتابًا واحدًا فى أدب الرحلات عنوانه **"طائر بين المحيطين"**.

هذه المؤلفات تتسم باتجاهات عدة، منها اتجاه الواقع والخيال، وتمثله **"نائب عزرائيل"** و**"أرض النفاق"** واتجاه الواقع والحلم فى

"**لست وحدك**" و"**الأرض والفضاء**"، واتـجاه فكاهى يغطى معظم إبداعاته القصصية والروائية، ويظهر بصفة خاصة فى مسرحياته، واتـجاه اجتماعى ويتضح فى كتبه غير القصصية والروائية، واتـجاه فلسفى فيه تناول مشكلات ميتافيزيقية مثل مشكلة الـموت، والـموت الفجائى، متأثرًا بما حدث لوالده من موت فجائى حتى ألح عليه هذا الـحدث، فجعله يكتب رواية "**السقا مات**" التى يبدو فيها الـموت عامـلاً أساسيًا، إن لـم يكن هو البطل الـحقيقى فى هـذه الرواية. واتـجاه تاريـخى فى القصة والرواية حيث تـجده فى تأريـخه لثورة 23 يوليو 1952 فى رواية "**رد قلبى**" ومعركة التأميم والتحول الاجتماعى بمصر إلى الاشتراكية فى رواية "**نادية**"، وأحداث الوحدة بين مصر وسوريا فى رواية "**جفت الدموع**" ومأساة الانفصال وانتهاء حلم الوحـدة العربية فى "**ليل له آخر**"، والسد العالى كإنجاز وطنى للثورة فى مسرحية "**أقوى من الزمن**"، ومأساة فلسطين فى عملين هما "**طريق العودة**" وكذلك "**ابتسامة على شفتيه**" وحرب الاستنزاف وأكتوبر المجيدة فى "**العمر لحظة**" وكان آخر ما كتبه عام 1978 هو كتاب "**مصر المشكلة والحل**".

هذا إلى جانب ثلاثيته الرومانسية كما رأينا فى "**إنى راحلة**" و"**بين الأطلال**" و"**فديتك يا ليلى**" والتى فيها جميعًا جسد كل معانى الرومانسية والمثالية، التى تعبر عن عالـم رحب فسيح هو عالـم الوجدان واللا شعور لدى الكاتب.

ولا يمكن أن ينتهى حديث عن سيرة يوسف السباعى الشخصية،

والأخرى الأدبية، دون الإشارة إلى كونه كان مهمومًا باحتضان المواهب الأدبية الشابة الواعدة، ورعاية الأخرى الناضجة، وذلك بفتح مجالات العمل والنشر أمامها. يستوى فى ذلك الذين يختلفون معه والذين يتفقون معه، فهو كان لا يفرق بين الاثنين وتلك كانت سليقة وطبيعة يوسف السباعى، أن يرعى الجميع ويحنو عليهم بحبه ووده، دون النظر إلى خلاف فى الرأى أو الاتجاه أو التيار. وهو دور جعل ليوسف السباعى وجودًا حيًّا وخالدًا فى ساحة الوطن المصرى والعالم العربى. حيث كرَّس كل جهده من خلال ما اضطلع به من مسئوليات ومهام لخدمة المبدعين بمصر، وقضايا الأمة العربية وفى مقدمتها قضية فلسطين، التى سخر حياته لها ولمناصرتها، حتى كانت هذه الحياة فداء لهذه القضية، حيث انتهت على يد فلسطينى متهور، فى الثامن عشر من فبراير عام 1978، وهو فى مهمة قومية تدور حول قضية فلسطين، بعيدًا عن أرض الوطن فى نيقوسيا، وكأن هذه الحياة الثرية الغزيرة بإنتاجها ومواقفها أبت إلاَّ أن يكون ختامها العمل من أجل قضية فلسطين، والموت على يد واحد من أبناء فلسطين، وتلك واحدة من سخريات القدر مثل التى كان يوسف السباعى يسجلها فى بعض أعماله الإبداعية.

الفصل الثانى

بين الرومانسية والواقعية

القصة.. والرواية..!

"فلم أدر إلاَّ وقد احتضنته بين ذراعيَّ، ووضعت فمي على فمه!! ولاشك، أن الفتى قد اعترته دهشة شديدة، فقد سادت لحظة صمت ثم رأيته يدفعنى بعيدًا عنه، ويرفع يده، فيهوى بها على، فى صفعة لم أذق مثلها فى حياتى.

ولم أحس يومًا ما بألم الخذلان ولا مرارة الهزيمة، كما أحسست بهما فى تلك الليلة، لقد انسحبت من الغرفة فى بطء، وعدت إلى فراشى "فى المطبخ"، وارتميت عليه، وقد أخذتنى الرجفة، كأننى فى النزع الأخير! لقد كرهت نفسى، لأننى لا أستطيع أن أكرهه، وقلت لنفسى إننى المخطئة لأننى واثقة أنه لا يخطىء، لقد كنت مغرورة.. ونلت جزاء غرورى.

ولكن: لم لا يكون كغيره من الناس، لم يأبى إلاَّ أن يرانى خادمة؟ لم لا ينزل عن هذه المثالية التى هو فيها".

قرأت قصة "الصفعة الثالثة"، التى أشرت إلى بعضها فى السطور السابقة، وهى من أوائل كتابات "يوسف السباعى فى القصة القصيرة، هذه القصة تعطينا صورة واضحة صادقة لقلم السباعى القصصى منذ البداية، إنه القلم الذى يحمل الوفاء!!

والقصة تحكى، "عن خادمة صغيرة، كانت تخدم فى بيت به الأم" والأب.. وولدان شابان، ولكن الخادمة، لا تميل إلاَّ للفتى الأصغر..!!

وفى يوم، ذهبت لتشترى حاجيات من السوق، ولكن النقود فقدت منها، فجلست تبكى، وتأخرت فى العودة، مما دعا الأم إلى إرسال فتاها للبحث عنها، ودفع النقود التى معه كلها، والتى كان قد أخذها بصعوبة من أجل رحلة سيقوم بها فى الغد مع أصدقائه.

وبسذاجة الطفولة وبراءتها.. ظنت أنه يكن لها حبًا مثل حبها، بدليل هذه التضحية الخيالية، فلقد حرم نفسه من الرحلة.. وخرج بالفعل ليدَّعى بأنه ذاهب إلى الرحلة، ولم يذهب بالطبع، بل أمضى اليوم كله جالسًا فى الطريق، لحين حلول المساء والعودة إلى المنزل، ليقص أكاذيب عن رحلة موهومة مختلقة لم يذهبها.

وكان ما كان من الخادمة الصغيرة، كما رويناه من واقع القصة فى المقدمة ونالت الصفعة الأولى..!!

وأدركت أنه يشفق عليها، ولا يحبها، ولكنها تريد حبه، لا شفقته..!! وتركت الدار، وقاست وعانت، فى سبيل أن تصير شيئًا يراه الفتى بعينيه، وعاشت فترة مظلمة، ومع ذلك لم تنقطع عن رؤيته، حتى وصلت إلى قمة المجد وأصبحت مطربة مرموقة، ورأته يستمع إليها، وكانت تغنى له وحده، وفى النهاية، أتى إليها مهنئًا.

من العبث وصف سعادتها فى هذه اللحظة، ودعته لتحظى معه بفترات حب.

وتحقق لها الأمل، والانتصار.

ولكنه كما فعل فى المرة الأولى والصفعة الأولى، مد لها يده "بالصفعة الثانية"، أوراقًا مالية، تركها على المنضدة.

إنه يأبى، إلَّا أن يكون مثاليًا، كما كان فى طفولته لماذا؟ لأنه متزوج.

ومع كل هذه الصفعات فهى لا يمكنها أن تكرهه فوفاؤها لحبها.. لا يدانيه وفاء..!

وحين ماتت زوجته، سعت هى إليه، وقبل الزواج منها، ولكن لم يكد الزواج يتم، واستعدت لأيام هانئة مع حبها، حتى تلقت الصفعة الثالثة، كانت صفعة القدر.

لقد غادر الحياة وتركها، لا خادمة ذليلة، بل نفسًا بالية وروحًا خاوية، وامرأة مخذولة..!!

وبوفائها النادر، اعتزلت الحياة، وارتدت السواد بقية عمرها.

"وقد أعاد يوسف السباعى صياغة قصته القصيرة الأولى "الصفعة الثالثة" صياغة جديدة، بالمعنى نفسه، ولكن تحت اسم "امرأة خاسرة".. فى مجموعته القصصية **"اثنتا عشرة امرأة"**.

ومن النادر جدًا.. أن نرى كاتبًا ينشد الوفاء المطلق فى كل امرأة. ففى القصة القصيرة، كما أوضحنا، جعل من الخادمة الذليلة صورة للوفاء النادر. ومن المرأة الفنانة المشهورة، صورة للوفاء النادر، لم يتغير مع الزمن أو الأحداث، ولم تغير من طبيعتها ضعة مكانة أو سمو مكانة، فقر أو غنى. فهى فى حبها.. امرأة وفيَّة وكفى..!

وبديهى جدًّا، أن نشعر بالعجب لهذه الصورة الفريدة فى نوعها.. ونشعر بالعجب أكثر إذا ما انتقلنا من القصة القصيرة إلى الرواية، لنجد الصورة نفسها للوفاء، فهو يعبر بصورة، أو بأخرى عن قيمة الوفاء فى أحداث الرواية أيضًا.

فإننا نراه وقد شكَّل، وجسَّم صورة للوفاء النادر، فى المرأة التى تحب فى روايته "بين الأطلال"، ونرى كيف أن "منى".. وقد ضحت بشبابها وحياتها وزوجها وبيتها، لتعيش فى بيت حبيبها الذى ودع الحياة.. لترعى ابنته.. وتعيش وفيَّة لذكراه..!!

وهنا.. سوف يتأكد القارئ، أن هذه هى "رومانسية السباعى" فى تصوراته، وخيالاته، وأوهامه لحب نادر أن يوجد فى هذه الحياة.. ولكننى أقول إنها، "مثالية السباعى" الذى يريد أن يترجمَ العواطف إلى "وفاء" تمامًا كما فعل فى نهاية روايته **"إنى راحلة"**.

وإننا لن نسرد هذه الرواية، أو نحللها فقد سبقنا إليها الكثيرون، عبر تحليل وتقييم أعمال السباعى، ولكن كل ما يمكننا أن نشير إليه هو إثبات "قيمة الوفاء" فى كتابات السباعى كلها..!!

هو أبدًا لا يريد أن يحيد عن مثالية فائقة الخيال، ووفاء منقطع النظير، سواء فى قصصه القصيرة أم رواياته الطويلة، أم منهجه فى الحياة مع الناس، ومع المجتمع، ومع الأسرة، لأنه نبع من ذات نفسه المثالية، فما هو بالذى يفتعل أو يدَّعى أو يمثل أو يكتب ما لا يشعر به، فما كتاباته إلَّا تعبيرًا صادقًا عن نفس خيرَّة رائقة، تعطى،

وتـهب، وتبذل، وتضحى.. دون أية غاية إلّا غاية الـحب، وغاية الوفاء.

ويعتقد أو يؤمن القراء، بأن مذهب "يوسف السباعى" فى الأدب هو مذهب "الرومانسية"، ولكننا إذا ما تحاورنا فى كل الاتجاهات الفكرية، التى خاض فيها قلمه وفى أحداث قصصه ورواياته، نجد أنه يرصد أحداث الواقع، بجانب أحداث الخيال ممزوجًا مزجًا معطَّرًا بالرومانسية.. فى صورة مثالية.

فرومانسيته فى الواقع، تتعانق وتتمازح مع الواقعية، لتنتج المثالية الكاملة، التى ينشدها فى الحياة وفى القصة، وفى الرواية، لتمتزج وتخرج إلى مقصده العام.. وهو "مقصد الوفاء".

* * *

وفى قصصه ورواياته نجد دائمًا الصراع الطبقى. ففى القصة الأولى التى ابتدأنا بها وهى قصة "**الصفعة الثالثة**" كان الصراع الطبقى فيها على أشده، واستنكار الفتى حب خادمة له، وهذا التفاوت بين الطبقات، خادمة تحب سيدها، وسيدها هذا يتصف بالمثالية المطلقة، وبالاحتفاظ والحفاظ على كرامة المستوى، الذى لا ينحدر، أو ينزل عن مرتبته، ليتدانى مع مرتبة خادمة، وكان إحساسه من ناحيتها هو العطف والشفقة على مخلوقة بائسة مسكينة، ولا يرقى هذا العطف إلى أكثر من ذلك، ولا يعلو إلى مرتبة الحب.

فالصراع الطبقى، واضح كل الوضوح فى قلم السباعى، بجانب التزامه بالوفاء لمن يحب.

وفى صورة مقابلة من رواياته، نرى ذلك القلم الوفى، بالوفاء نفسه المعروف عنه، الصراع الطبقى نفسه الذى يتضح أكثر فى روايته "رد قلبى" ليكشف فيها التناقض الاجتماعى والمعيار الطبقى، والصراع الذى يظهر على أشده بين "علاء" ابن الباشا، وبين "على" ابن الجناينى.

وفى نقيض له، من الرواية نفسها، نرى وفاء "انجى" لعلى...! وانعدام الفوارق الطبقية، بصورة يغلِّفها الوفاء والحب.

وفى "رد قلبى"، نلمس أيضًا، الشفقة من "انجى" تجاه على.. هذه الشفقة التى هى أولى مراتب "الحب"..!

ومن البديهى أن يصور السباعى التفاوت الطبقى فى معظم أعماله.. وذلك بالطبع يرجع إلى فترة ما قبل ثورة 23 يوليو، تلك الفترة التى كانت فيها الفروق الاجتماعية شديدة القسوة، وتمثل ستارًا مظلمًا على أبناء الشعب، خصوصًا أبناء الطبقة المتوسطة منهم.

وبجانب رومانسية التعبير والفكر فى هذه الرواية، نجد الواقعية الشديدة، وتصوير الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، التى عاشها مجتمع ما قبل ثورة 23 يوليو، وكان التفاوت الاجتماعى من أبرز الظواهر التى تتسم بها هذه الفترة فى تاريخ مصر، لذا، كان تأثر الكاتب وتعايشه مع هذه الأحداث، يمثل الحقيقة الواقعة، والملموسة فى نفوس وطبقات الشعب المصرى..!!

إذن.. فلا مجال للإصرار على رومانسية قلم وفكر يوسف

السباعى، رومانسية تقترب من الشطط، ومن البديـهى أن نلاحظ أنه يمزج ما بين كل هذه المذاهب ليخرج منها بمدلول واحد، وفكر واحد، ومبدأ واحـد، هو إصرار قلمه على الوفاء، الوفاء للمبدأ.. للقيم.. للمثل.. للوطن.. للمجتمع.. للأسرة.. وللحب.

وهكذا، فإننا بعد كل ما وصلنا إليه، لا نجد أنفسنا إلاَّ مرغمين على استنباط مذهب جديد فى القصة والرواية، يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الأخرى المتنوعة فى الأدب.. ألا وهو **"مذهب الوفاء..!"**

ورواية **"رد قلبى"** تعتبر من الروايات المهمة جدًّا، والواقعية جدًّا والصادقة فكرًا وفهمًـا وتصورًا عن حياة الشعب المصرى، وفى قلم يوسف السباعى، فهى تصور فترة زمنية تاريـخية، معروفة تمامًا، فترة الانتقال والتجديد.. للروح، للمعنى، لأسلوب الحياة نفسها، وتصور بوضوح تصويرًا حيًا.. لنماذج بشرية فى مجتمعنا المصرى المعاصر، وتظهر بوضوح أيضًا.. مدى ما كانت عليه التفرقة الطبقية، بين عناصر الشعب، فى فترة عاشها.. وخاضها الإنسان المصرى، فترة تـحدد الزمان والمكان، بما قبل الثورة، ثم زوال هذه الفوارق غير المستحبة بزوال أسبابها.

أما فى تصوير قلم السباعى للحب، الذى قام ونشأ بين اثنين متفاوتى الطبقات، بين "على" ابن الجناينى، و"إنجى" ابنة الباشا، فإننا نرى كيف كان التأثير، والتأثر قويًا جبارًا، والصراع أقوى من هذا التفاوت البيِّن.. بين إنسان وإنسان، ينعم كل منهما بمشاعر خلقها الله فيه، ولم يكن فيها دخل ليد الإنسان، وكيف تمكن الحب الخارق الذى يجمع بين القلوب من أن يثبت وجوده، وبزوال الفوارق الاجتماعية

والطبقية، وصحوة شعب عنيد مثابر مكابر أصيل، شعب وفى لأرضه، ولبلده، أمكن فى النهاية لهذا الحب أن ينتصر، وأيضًا لقلم يوسف السباعى.. ذلك القلم الوفى.. أن ينتصر هو أيضًا فى النهاية.

فإذا كانت المثالية فى الفكر، والمثالية فى القلم، والمثالية فى تصوير الشخصيات الروائية، بصورة تفوق المعتاد تعتبر رومانسية؟ فأين بالله إذن تكون المثالية؟ وأين مكان الواقعية من هذه الأحداث المسجلة بأزمانها؟ وبأحداثها؟ وتاريخها؟ وأين منها قضايا الإنسان المعاصر؟ وأين انتفاضة جيل بأكمله ضد عناصر القوى والبغى والشر.. والعدوان؟

أين من كتابات السباعى العدالة الاجتماعية ومفهوم الإنسانية؟ وأحقية البشر والشعب فى الحياة الحرة الكريمة؟ بل أين وأين، وأين تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى؟ وثوراتنا التاريخية والوطنية وانطلاق شعبنا من جيل مستكين خائف؟ يرضخ للذل والاستعمار إلى جيل واع ثائر تنبض شرايينه بعشق الأرض وحب الوطن والتضحية والبذل والفداء والعطاء؟

اعتقد.. أنه ما من قارئ سوف ينكر على السباعى تعايشه التام مع أحداث وطنه، وتشبعه بتراب أرضه، واستنشاقه لعبير خضرته، وشربه من ماء نيله، واستظلاله بظلال سمائه وتجنيده لقلمه وروحه وفكره ونفسه، لخدمة قضايا مصر الوطنية والفكرية والاجتماعية، بكل ما أوتى من فكر متوثب.. مثالى خلاق.

نائب عزرائيل.. ضد الفساد:

هنا: يجدر بنا أن نعود إلى خيال مطلق، ولكنه خيال مستحب.. تُرَجى منه فائدة وعظة وعبرة، خيال قد يسمى بالرومانسية، ولكنها الرومانسية العلمية التى ترقى إلى ما فوق مفهوم البشر، وحيرة الإنسان فى معرفة مصيره، ومصير حياته وكفاحه ودأبه ليصل فى النهاية إلى الموت!

والإنسان فى كل مراحل حياته، يبحث عن الحقيقة، ويبحث عن سر الحياة وعن سر الخلود، وعن سر البقاء وسر الموت! والكاتب أقدر من غيره على تصوير انطلاقة الإنسان نحو المجهول، وتشوُّقه إلى معرفة ما يكمن وراء هذا الكون من أسرار وألغاز ومفاهيم، لا يجد لها تفسيرًا، أو حلاً أو مبررًا.!!

وقد كان السباعى من أشد الناس تشوقا وتلهفًا إلى معرفة الغيب، فكان يرقى بخيالاته وتصوراته إلى ما وراء الحجب، ويهيم ويسبح إلى ما لا نهاية!! ليرقى ويعيش بفكره وقلمه فى سماوات هذه اللانهاية، وليعرف الغيب وما تخفيه هذه السماوات عنه من أشياء مستورة خفية، يعجز البشر عن فهمها أو الوصول إلى مدلولها.

ومن هنا: انطلق السباعى بقلمه وفكره وخياله إلى البحث عن الموت، وعن ذلك الكائن الذى يأتى ليسلب الإنسان حياته، ويختطف روحه "عزرائيل" ملاك الموت، فكيف يا ترى وصل خيال السباعى إلى وصف هذا المخلوق الذى يخاف منه البشر ويتهيبون لقاءه؟

هل وصفه مثل "دراكيولا"، أو مثل أخطبوط أو وحش مخيف؟ يأتى ليفرّق الروح من الجسد، وتخرج الروح بشهقة والعيون جاحظة تنظر إليه فى خوف وذعر وألم؟

إن السباعى يرى الجمال فى كل شىء، يراه فى الزهرة، فى الوردة فى الحياة، وفى أنشودة الموت.

ومـــــا صـــــاحبك بجمـــــيل،

إنمـــــا الجمـــــيل قلـــــبك.

فالجميل يرى الجمال فى كل إنسان، وفى كل مخلوق، والذى يحب، لا يعرف كيف يكره، حتى عزرائيل أحبه خيال السباعى، وتفنن قلمه فى وصف جماله وحلاوته، فما أعجبه من قلم وما أحلاه من وصف.. لقد جعل كل البشر يشتهون لقاء عزرائيل، ولم يعد هو ذلك الشبح المخيف الذى يزهق الأرواح، بل صوره فى صورة لطيفة، يتمنى كل فرد منا أن يلقاه ويحظى برؤياه.

لقد رأى السباعى فى خيالات قلمه وانطلاقاته، "عزرائيل". رآه.. "مخلوقًا جميلاً، مهيب الطلعة، حلو التقاطيع، جذاب الملامح.. ليس به ما ينفِّر أو يخيف أو يثير الرعب، ويملأ النفوس خوفًا وجزعًا وألـمًا.

وظل يبحث عن المنجل الذى تحش به الأرواح، وظل يبحث عن تعريف صحيح للموت:

ـ ما الموت؟ إنه انطلاق من سجن الحياة، نتحرر من قيود الجسد!!

ـ وما الحكمة من الخوف من الموت.

ـ إنه يحد من طغيان الناس، ويخفف من شرورهم وآثامهم، ولأنهم يخافون الموت، فلا يرتكبون السيئات.

وفلسفة السباعى، تتجلى فى روايته "نائب عزرائيل"، وقلمه الساخر يلعب بالعقول والنفوس، ويهز القلوب، ويجعل الشفاه تبسم فى أشد مهازل الحياة أو مأساتها. "الموت".

حتى فى الموت، وفى شبح الموت، يداعب القلب عزرائيل ويجعله "عاشقًا"، عزرائيل يعشق ويحب، أبعد كل هذا من سخرية حتى فى الموت؟ ومع عزرائيل، فلا بأس للقلم أن يعيش الحب، فلا يمكن لقلم السباعى أن يكتب شيئًا من دون حب، إنه قلم مدمن للعشق، محترف للحب.

ويجول ويصول فى اختيار الموت لضحاياه، والموت لا يدقق أبدًا فى الاختيار.. وذلك يثير أسى السباعى فلابد أن يختار الموت، من يحق له الموت، ولا يكون له مكان فى الحياة، فكيف بالله يأخذ روح فتاة على عتبة الزفاف؟ فى حين يترك كهلاً فى أرذل عمره متسولاً فى الطريق؟

لا.. لا.. فى الحقيقة إن عزرائيل ليس عنده نظر، وعزرائيل نفسه، عاشق ولهان، يا للسخرية، ويا لأبعاد فكر السباعى، أى إنه يقصد أن يقول: "إن الحب لابد وأن يلمس كل قلب، شريرًا كان أم خيرًا إنسانًا

كان أم ملاكًا، فى الأرض أو فى السماء، حتى عزرائيل نفسه أصابه الحب بلوعته.

ويعشق من عزرائيل هذا؟

يعشق واحدة من أهل الجنة.

امتزاج ومزج، بين الخير والشر، تمازج تام فى كينونة البشر والعدم، حتى بعد فناء الروح، وخروجها من الجسد، فإن الأرواح أيضًا تحب وتعشق.

ما هذا الخيال الجامح؟ وما هذه الحقيقة الواقعية؟

مهمة "نائب عزرائيل" تكشف عن مفارقات عجيبة فى تصاريف القدر.

سيعود، سيعود قلم السباعى إلى الأرض، ليجوس فيها، ولكن بصيرته المخيفة، المقبضة، صوَّرت عزرائيل الموت، قابضًا لأرواح الناس تاركًا وراءه الأرامل واليتامى، الدموع والأحزان، وخراب البيوت. وكان مشهد الآخرة.

وفى وصف الانتقال من الحياة إلى الموت، لم يفت القلم الساحر أن يصور ما يعترى أحوال الناس من مشقات يغنيهم عنها الانتقال إلى الموت، ففى الدنيا مشقة عزال، وفى الآخرة، خفيفًا دون متاع، حتى "خلو الرجل" لم يدفعه لسكناه فى الجنة.

يا لها من مهمة، عليه أن يؤديها، ارتباطًا بكلمة الشرف مع "عزرائيل".. الذى ذهب إلى "موعد غرام".

بعصاه السحرية.. وكأنه ماريشال فى يده مصير الأرواح، انطلق

نائب عزرائيل ليؤدى مهمته، لكنه تحيَّر. إن الموت لابد أن تكون له نظم وقوانين، وأن من يموت يكون وجوده على الأرض شرًا، وضررًا ينبغى أن يمحى، لتمحى معه شروره وآثامه، أما أن يخطف روح الطفل البرىء، أو الفتاة اليانعة النضرة. أو يخرب الأسرة الهانئة، فهذا ما لا يقبله نائب عزرائيل الجديد: الإنسان.. الرائق.. الشفاف.. نائب عزرائيل الذى يمثل قلمه الحب والوفاء.

لا.. لا.. هذا كثير عليه هو، من عاش للعطاء لا للأخذ، هذا ما لا يستسيغه بتاتًا، وما دام فى يده الأمر والنهى، ومصير الأشخاص والأرواح فى يده فلم لا يغير من هذه النظم؟ ويعطى الموت لمن يستحقه؟

إنه يجد أن الموت يطيح بأرواح لا ذنب لها ولا جريرة، إنه يتصرف تصرفًا طائشًا لا بحكمة واعية، يترك المريض يعيش وطبيبه الشاب الذى يعالجه يموت، يترك الأرملة الكهلة المريضة الفانية، ويختطف روح العروس الشابة النضرة، دون أن تتمتع بحياتها. تترمل الزوجات يتيتم الأبناء.

ما هذه الحكمة الغريبة؟ والفلسفة البعيدة عن كل فهم وكل منطق؟ لم لا تنسق عملية الموت.

لو كان هو عزرائيل، لاختطف روح المريض، وترك الطبيب، وأخذ روح الأرملة الأم الكهلة، ووهب الحياة للعروس الشابة.

كان بالفعل يتمنى أن يكون مكان عزرائيل ليحكم بالعدل، ويأخذ أرواح من لا يستحقون الحياة، بل ويكون وجودهم عبئًا قاسيًا على هذه الحياة.

وها قد سنحت له الفرصة، فكيف يتصرف نائب عزرائيل؟ كيف؟ وفكَّر القلم، وفكَّر العقل، وفكَّر الإنسان، وفكَّر الكاتب المحلِّق فى أفق اللانهاية، مع تعايشه التام لواقع الأرض.

أولاً: سوف يضع قوانين ونظمًا للموت.

ثانيًا: سوف يتصرف بحكمة تحترم الإنسانية والبشر، لا تضرهم ولا تؤذيهم ولا تحطم حياتهم.

ثالثًا: سوف لا يجعل البشر يفاجأون بالموت، حتى لا تضطرب حياتهم ويصيبهم الانهيار والضياع، بل سيدركونه ويعروفون نظمه وقوانينه حتى يستعدوا له!

إذن، فى فكر السباعى وفى تصوره، ومن إيمانه العميق بهذا الفكر أن الموت يجب أن يكون فقط للتطهير من الجريمة ومن الشر، وعلى هذا المبدأ سوف يسير، وإن أخلف وعده، وغيَّر من كشوف الأسماء التى يجب أن يختطف أرواحها، وهذا لا يهم، فى سبيل المبدأ والإنسانية، وسلامة الأرض والبشر، فإن الغاية تبرر الوسيلة، وعلى هذا المبدأ، انطلق نائب عزرائيل ليؤدى مهمته فى الأرض.

هنا يظهر فكر وقلم الفيلسوف الحقيقى، الذى مزج هذا الخيال الجامح، بالواقع الحقيقى المر، فلقد تحايل بالخيال، ليظهر واقعًا حقيقيًا ويكشف عن نوعية من البشر، تضلل الناس، وتنشر الفسق، وتخنق رقاب العباد، بسيطرة يتيحها لها منصب وجاه، وحكم وتحكم.!!

تحايل القلم الجامح الغارق فى الخيال، تحايل ليلبس إبليس صورة "نائب عزرائيل"، ليكشف زورًا وبهتانًا، أثوابا تغطى أناسًا لا هم بشر ولا حتى سوائم، إنهم الشر مجسد، ومع ذلك لا يوجد

اسمهم فى كشف خطف الأرواح الذى سلمه له عزرائيل، إنهم مـجانين، مـجانين، ولكنهم مطلقو السراح، يعيثون فى الأرض فسادًا، وفسقًا، وشرًا، لهم قدرة عجيبة على خداع الناس، والإمساك بزمامهم، بصفتهم الرسمية، إنهم "حكام" وقادة، وسياسيون، يحيلون الأرض جحيمًا، ويقطعون الرقاب، ويسيلون الدماء، ويقيمون دولة على دولة، بالحروب والمنازعات، إنهم بالفعل مـجانين، ولكن ليسوا فى مستشفى المجاذيب، هؤلاء يمكن السيطرة عليهم، أما العظماء والساسة والقادة، فيحركهم جنونهم نحو دمار العالم، وفناء البشرية بطريقة حكمهم الموتور، إنه صراع أمم، إرضاء لشهوات نفوس مريضة، وشخصيات مهزوزة، تستغل مناصبها لإرضاء شهوات جامحة مريضة فى إراقة دماء البشر!!

هؤلاء هم من يستحقون أن تقبض أرواحهم فورًا، دون هوادة أو تواكل حقنًا للدماء، وإنقاذًا للبشرية، منهم ومن شرهم، ومن مرض نفوسهم.

هؤلاء المرضى، يجب بترهم بترًا نهائيًا من هذه الدنيا، هؤلاء الذين يغرقون العالم بالدماء، ويشوهون صورة الحياة، ليقفوا ويشاهدوا مآسى البشر ومذابح الإنسانية، تتراقص على مذبح شهواتهم.

نعم، يجب كشف ستر هؤلاء الذين يتسترون تحت ستار الوطنية الزائفة، والتى تخفى مرضهم النفسى، ومشاعرهم الدموية، "مصاصو الدماء"، إنهم لا يبحثون إلاَّ عن مطامعهم الشخصية وأهوائهم الذاتية، لإرضاء هذه الذوات بالسيطرة على أكبر رقعة من العالم، بحجة الوطنية..!!

إنها أنانية لا وطنية، ومصالح شخصية لا مصالح وطنية، إنها (الأنا المريضة) وليست الكل والمجموع، الذى يحيا ويعيش بأنفاس الوطنية الصادقة، المضحية بالنفس والروح فى سبيل المجموع، إن الوطنية هى الوطن كله، لا أن يأكل القوى الضعيف، ويتستر تحت ستار الوطنية!!

من هنا.. يجب على "نائب عزرائيل" أن يبدأ التطهير، والاستئصال والبتر، من هنا يمكن إنقاذ البشرية كلها من طغيان قوة غاشمة، وقوة ضارية على شعوب مسالمة ضعيفة. من هنا، يجب جمع الشمل للعالم كله، ليعيش فى أمن وسلام بكل أجناسه ودياناته، وعقائده، وشعوبه، ليصير محصَّنًا آمنًا، ضد الحروب والتطاحن.

هذه هى العلة، وهذا هو الداء، ويجب إيجاد الدواء بإنقاذ الوطن الجريح والبشرية المطحونة، والإنسانية المظلومة من ظلم فئة طاغية مستبدة حاكمة، تستغل طبيعة الشعوب الهادئة المستكينة، المسالمة، الطيبة.. الراضية، وتؤرجحها بين نار الحروب، وذل الأسر، وتشتت الشعوب والأفراد وقيام أمة على أمة، والمجاعة، وكل ويلات الحروب، وكل النتائج التى يمكن أن تنتج من مفارقات ومنازعات ومشاكل لن تحل، ولن تبتر إلاَّ ببتر هذه العناصر، وهذه الفئة ممن لا يستحقون الحياة، فى هذه الحياة.

واستعد "نائب عزرائيل" لهذه الرسالة الوطنية الصادقة، متخطيًا فيها كل الصعاب، ضاربًا بكشف عزرائيل عرض الحائط، دون ما تقيِّد بأسماء ولا أشخاص، تم تحديدها بالفعل فى كشف عزرائيل الأصلى المبجل!

إن الوطن، الإخاء والإنسانية الحرة الكريمة.. والعيش فى سلام

وأمن وطمأنينة، أفضل ألف مرة من تعليمات السيد عزرائيل الذى يخبط فى قبض الأرواح.. خبط عشواء.

* * *

ويـجدر بنا أن نركز على أسماء شخصيات السباعى فى قصصه ورواياته، ففى هذه الرواية مثلاً "**نائب عزرائيل**" يبتدىء سيادة النائب بإلقاء نظرة على كشف الأسماء، التى كان يـجب عليه أن يـخطف أرواحها، مكلَّفًا من رئيسه "عزرائيل" لنرى كيفية اختيار الأسماء الـمضحكة مثل "**جابربك كيراشو**".. فبدلاً من أن يقول جابر **بك** كيرشو المشتقة من (كيرش) أو (كرشة)، وهذه بالطبع تورية مذهلة لطريقة قبض روحه، وزمانـها ومكانـها، فإن الاسم قد اختير على مسمى، ومعنى ومغزى، فـإن "كيراشو" بك هـذا، يقيم وليمة غـداء كـبرى فى داره الـجديدة بباب الـخلق والوليمة، معناها ملء الكروش، والاسم قد اتـخذ من الكرش والكرشة التى كان يبيعها فى بدء حياته، قبل أن يـحصل على البكوية، وهو يملأ كرشه بغذاء شهى، وكان التوقيت مناسبًا تمامًا، فبعد أن يملأ كرشه إلى النهاية وعقب وليمة الغداء، مفروض أن يشير نائب عزرائيل بعصاه ليخطف روحه ويموت بالتخمة.

والاسم الثانى فى قائمة عزرائيل هو (**مـحمود أفندى الفنط**)، إنه فنط.. أى مـحفلط، يسير فى الطريق يعاكس، ويغازل، ويـهز رأسه يمينًا ويسارًا ويفتل شاربه، وفى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر يسير وراء.. الآنسة "**تـحية لف**" ولف يمكن أن تكون تورية للملاية

اللف، أو أنها فتاة من اللاتى يدرن ويلففن فى الشوارع، بقصد انتظار معاكسات أمثال محمود أفندى الفنط!!!

الأسماء تورية ضاحكة، ساخرة لمهازل هذه الدنيا، ومفارقاتها. وعلى عزرائيل أن يقبض روحه وهو فى معمعة المغازلة لتحية لف.

وإننا إذ نجد الأسماء لها معنى ولها مغزى، ولا ترسل اعتباطًا فلا يمكننا إلاّ أن نسمى "يوسف السباعى" بأديب الحياة.. وأدبه.. هو.. أدب الحياة الحقيقى..!

إذن.. فهو الأدب الواقعى، الذى يظهر ويدمج فى إطار من الخيال المستحب، ويعيش الكاتب الواقعى، الرومانسى، بمعايشة صادقة للأحياء والأشخاص، وتفاهم تام بنوعية ونفسية البشر الذين عايشهم وعاصرهم، ونظر إليهم قلمه، نظرة الفيلسوف الساخر الذى يفلسف الأشياء، ويظهرها على حقيقتها الخالصة، فى ثوب من الخيال، والنقد الساخر المرير، الغرض منه فقط هو إعطاء جرعة ضاحكة محببة إلى نفس القارئ. ليهضم مفهومًا وفلسفة معينة، ويتقبلها بصدر رحب، وفٍّ باسم.. لتنفذ إلى خلاياه لا فى طريقة الواعظ أو الناصح أو الحكيم، بل بطريقة كل بمفهومه الشخصى. ويدرك فى النهاية أن هذه الرواية، أو هذا العمل ليس خيالاً جامحًا.. أو هو حقيقة تامة، بل هو "مثالية مطلقة" ينشدها السباعى للأشخاص، وللحياة، وللعالم كله.

ولكن، هل تمكن بالفعل من توصيل هذه الرسالة؟ وهل تمكن من أن يفهم الناس؟ إن غايته الكبرى هى الوصول إلى المثالية المطلقة للناس وللحياة وللوطن.

الرد هنا.. يكون للقارئ وحده..!!

وعاد نائب عزرائيل، ليمر ببقية الأسماء المدونة فى الكشف الذى فى يده لخنق أرواحها، ومن أطرف الأسماء، اسم "**حسين قدرى**" يموت فى حادث عربة مقلوبة وهو يحتضن الآنسة (**فيفى جمال**)، ومطلوب ألَّا تموت الآنسة المذكورة لأن عزرائيل مازال فى حاجة إليها فى حوادث أخرى، تكون هى بطلتها على مسرح الحياة.

ولكن نائب عزرائيل، وجد بعد تفكير طويل، أنه لابد من تغيير مسار هؤلاء الأشخاص.. حتى لا يموتوا، وعليه أن ينقذهم أولاً من مصيرهم المقدر لهم، والمكتوب فى سجل القدر، ثم بعد ذلك يتفرغ لأعداء الوطن الذين سوف يخلص البشرية من سطوتهم وجبروتهم وبطشهم وشرهم.

والآن، لنعد إلى نائب عزرائيل، ذلك الفيلسوف الضاحك، الذى يمسك عصاه ويدور فى هذا العالم ليخطف أرواحًا اختارها هو، ورأى أن يقبض روحها هو وحده.. حتى ينزع عن العالم شرورهم.. وحتى ينقص البشرية والإنسانية من أفراد هم سبب كل مصيبة.. وكل كارثة.. وكل دمار.. وكل فناء للعالم أجمع!

ولابد من ملاحظة نوعية الأشخاص الذين وقع اختيار نائب عزرائيل على خنق أرواحها. وطبيعة هؤلاء الأشخاص، إنهم أعداء الوطن، حماة هذا الوطن الذين يدمرون الوطن بمبادئهم الفاسدة، ومعتقداتهم الخاطئة، وبالروح المدمرة التى تتغلغل فى نفوسهم، ليتستروا وراء ستار الوطنية.

إذن، كان الوطن، هو الهدف الأول من تركيز نائب عزرائيل على إبادة هذه الطغمة من حماة الوطن، لأن غيرته الوطنية، كانت شديدة فى أحلام يقظته وفى منامه، وفى خياله، وفى حقيقته، الوطن قبل كل شيء.

والآن، اختلفت مهمة نائب عزرائيل، فبدلاً من أن يبدأ بخطف أرواح المفسدين، إذ به يحاول أولاً، أن ينقذ أرواح من وقع عليهم اختيار عزرائيل، وكان عليه أن يسرع فورًا لإنقاذ الروح الأولى.

وكما أنقذ الروح الأولى، أنقذ الثانية والثالثة، إلى أن أنقذ بقية الأرواح، بطرق كلها مفارقات وسخرية، ونقد لاذع وتورية للحقائق المؤلمة.

وهنا جاءت المهمة الصعبة، وهى مهمة البحث عن جسد..!!

لقد عاد ثانيًا إلى عزرائيل لأنه فيما يبدو قد أستلذ صحبته، واعتاد عليه، أو أن حياة عزرائيل شيقة، لدرجة أنه عاد إليه، وبه حنين كل الحنين إليه!!

وها هو يناوشه ليعود به إلى الأرض، ولكن وليدًا جديدًا، وسأله عزرائيل: فى أى جسد يريد أن يحيا؟ واختار أن يكون: "زعيمًا"..!

والزعيم هذا.. هو النجم الهادئ الذى يبحث عنه هذا الشعب الشارد فى بيداء التعاسة، وفى وصف يوسف السباعى للزعيم، نرى أنه قد تخيل زعيمًا إنسانًا... أو تمنى أن يوهب للأمة إنسانًا، يشعر بآلام وطنه، إنسانًا يلتف من حوله الشعب، ويهتف له، وهم لم يجدوا هذا الزعيم.

هذا الحلم الذى ارتآه السباعى، ورسم به صورة الزعيم، وكان يتمنى أن يوجد مثل هذا الزعيم. كان هذا التصور فى عام 1947 حينما كتب روايته هذه "نائب عزرائيل"، وقد تحقق الحلم بعد ذلك، وظهر الزعيم الذى أنقذ الأمة، وعبر السباعى عن فرحته بظهوره فى مقال كتبه فى 27 يوليو 1957 قال فيه: "أربع ساعات متتالية.. وأنا أجلس منصتًا بلا شرود ولا سَرَحان إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر!!

هذا الأسلوب فى الحديث والخطابة، إنه يشعر كل إنسان من هذه الملايين بأنه زميله فى الحكم، وشريكه فى المسئولية والأسرار.

وبالفعل.. فلقد سجل هذا مرة ثانية فى كتابه **"أيام من عمرى"** وقال "بأنه سجل حلمه فى البحث عن زعيم فى كتابه **"البحث عن جسد"** قال فيه:

"نريد زعيمًا، ولد ليكون زعيمًا، خلق لإنقاذ هذه الأمة، وأنه ألزم شىء إلى هذا الشعب، فى هذا الوقت، زعيمًا يؤمن بأن لديه رسالة يؤديها وهدفًا يقصد إليه، وأغراضًا يسعى إلى تحقيقها.

إن الشعب، يريد إنسانًا ينقذه من هذا الفساد الذى يتسرب فى كل مناحى الحياة، وأصبحت الأنانية والخسة والوضاعة والنفعية، تسيطر على الأذهان والأعمال.

لذا، فإنه عندما سأله عزرائيل عن الشخصية التى يريد أن يكون عليها، اختار على الفور، أن يكون زعيمًا، وليكون منقذًا لهذه الأمة!!

كان يتنبأ بثورة شعب، كان يتوقع حادثًا جللاً، وكان هذا قبل ثورة يوليو 1952، إنه يريد تغيير حال إلى حال، يريد إصلاح هذه الأمة

بروح الكاتب، وشفافية الوطنى الصادق، كان ينادى بالانقلاب والتمرد على الفساد، والفسق والانحلال، والاحتلال.. إلخ.

الصورة نفسها التى قامت بها ثورة 23 يوليو، كتبها السباعى فى كتابه "البحث عن جسد"، فلقد وصف قيام الثورة، بأنها تبدأ على نطاق ضيق.. زعيم يجمع من حوله بضعة أفراد يؤمنون برسالته، يرشدهم إلى تعاليمه المخلصة الأمينة، ويبث فيهم دعوته الصالحة الطيبة..!!

لقد عاش السباعى أحلام الثورة، وتخيلها فكره. وسجلها قلمه، قبل أن تحدث، كان يريد الانتعاش، والانتفاضة، والبعث لشعب قهره الظلم واستبد به الفقر وحطمه الطغيان، وكان يحلم بظهور زعيم منقذ يدعو إلى الإصلاح والحرية.

إنها ثورة شعب.

والزعيم، عرضة للسجن، للثبات فى المبدأ، كما هو معرض للاغتيال وتهرب الروح ثانيًا إلى السماء.

ثم يعرض عليه عزرائيل أن يولد فى قصر ملكى، أن يولد "وليًا للعهد" ابن ملك.. ولملكة..!!

ربيب "جنينةناميش" يصبح وليًا للعهد؟ يا لطمع الإنسان..! فهل يا ترى يقتنع هذا الإنسان. ويقنع ويرضى بهذا الوضع السامى؟ وليًا للعهد... وابنًا للملك.. وملكًا بعد وفاة الملك؟

ويعود عزرائيل للقصر الملكى بعد ثلاثين عامًا، وقد استقرت الروح الآن، فى جسد "الملك".

ما هذا؟

لقد تبدلت الحال، ترهل الجسد، تكوم الشحم واللحم، وذهل الملك..! ماذا يقول هذا العزرائيل؟ لم يقل له أحد من حاشيته إن شكله منبعج. ومنتفخ، الجميع من حوله يقولون له أوصاف الجمال والكمال إنه النفاق..!!

فما دام هناك السلطان، والجاه، والنفوذ والحكم، وما دامت هناك حاشية وبطانة ووصوليون ومغتصبون، فلابد أن يكون هناك نفاق!

إنها "أرض النفاق"..!!

وثار الشعب على طغيان هذا الملك، وقامت الثورة، يقودها الزعيم، ذلك الزعيم الذى رفضت الروح من قبل أن تدخل جسده، هو المخلص للشعب.. من ظلم وجبروت الملك الطاغية، والشعب قامت له قائمة، فما عاد يصبر على هذا الظلم، إنه الزعيم المنقذ..!

لقد حاول السباعى فى روايته **"نائب عزرائيل"**.. كما تعود فى كل رواياته وأعماله الأدبية، أن يشرح كل المفاهيم والقيم التى تعارف عليها الناس فى ظل مستتر من السخرية والنقد.

* * *

هذه الجمعيات الخيرية التى تنشأ للخير، وما هى إلاَّ للدعاية.. والمكاسب الشخصية، المناداة بمحاربة الفقر والمرض والجهل، جمع التبرعات.. صورة لمجتمع فاسد، يود له التحلل مما يشينه من مظاهر خادعة كاذبة، مجتمع يريد له المثالية فى كل شىء.

والـمثالية التى ينادى بها السباعى.. ليست الامتناع عن فعل الـمنكر، بل إنـها أسمى وأنبل من كل هذا، إنـها إغاثة الـملهوف، إعطاء الـمحتاج، مواساة الـحزين الـمفجوع، فك ضيق الـمكروب والـملتاع.

هذه هى الحسنات التى تؤدى إلى باب الجنة، وإنها لمثاليات... ما بعدها من مثاليات فى مذهب السباعى المثالى..!! الذى يقول:

"إن السعادة فى أن تعطى، والسعادة فى أن تطلب لغيرك ما تطلبه لنفسك".

حقًا.. إن مدرسة "يوسف السباعى الأدبية" هى:

"مدرسة الحياة والإنسانية" مدرسة مترامية الأطراف، مشعة بالمحبة، عامرة بالصفاء والإيمان، لتنتج منها فى النهاية.. مدرسة جديدة، هى "المدرسة المثالية"، ومذهب جديد فى الأدب هو "المذهب المثالى".

جفّتَ الدموع.. مثالية الوحدة.. واقعية الانفصال

ومن الـملاحظ دائمًـا، في كتابات يوسف السباعي الروائية دمجه أحداث البلاد، ومـجريات الأمور السيارة، في إطار روائي شيق، فلم يـحدث قط أي حدث، إلاَّ وكان له النصيب الأكبر في كتاباته، وإذا ما عددناها واحدًا واحدًا، نجد أن لكل قضية عنـده وقفة، ولكل صراع تأمـل، ولكل حدث فكرة فمن "**رد قلبي**".. إلى "**نحن لا نزرع الشوك**".. **وحتى العمر لحظة**، وبقية أعمااله نراه يمزج الواقع القائم على الخيال الذي يـجب أن يكون، ليصل به إلى درجة الكمال والـمثالية.

ومن هذا المنطلق أيضًا، سوف نتعرض لإحدى رواياته التي كتبها في عام 1961 ـ وهي رواية "**جفت الدموع**"!!

هذه الرواية.. التي أراد بـها غرس المحبة والتضامن بين الأوطان.. واقتلاع كل ما ينبت في طريق الوحدة من حنظل الشوك، وشوك القلق. متمازجة تمام التمازج مع الأهازيج والألـحان القلبية، والتسابيح العاطفية الـمشعة بعمق الحب والإيمان..!

"أتذكر يا حبيبي، وقفتك وراء زجاج النافذة، تطل على النهر والجبال والأشجار، وأنفاسك تكسو الزجاج بالضباب، وأصبعك

تمتد، كما امتدت أصبعى لتكتب لى فى كل ليلة، "أحبك.. أحبك.. حتى الموت..!!".

"الزمن.. الزمن الطويل الذى لا ينصفنا إلاَّ بعد أن يكون العظم منا قد وهن، وبتنا على شفا الهاوية، وحفرة النهاية، ولم تعد بنا حاجة إلى إنصافه".

من مثل هذه التعبيرات التى تجيش بها صفحات رواية "**جفت الدموع**" يؤمن القارئ بأن الرومانسية البحتة، هى كل ما تخطه سطورها، وأن العشق والغرام هو جوهرها، ولا يخطر بباله قط، أنها رواية كتبت لتسجيل أحداثًا وطنية، وفترة زمنية، حفرت سطورها فى أحداث الوطن، وهو كما يقول: وبصفة الكاتب الملتزم دائمًا بمسئولية تسجيل أحداث بلاده، عليه أن يسجل وقائع هذه الفترة من تاريخ الوحدة العربية، ويعترف السباعى بقوله بأنه قد حاول أيضًا فى روايته "**رد قلبى**" أن يؤدى بعض هذه المسئولية تجاه الثورة التى غيَّرت من وجه التاريخ فى مصر.

أما فى قصته "**نادية**".. فقد حاول أن يعكس تأميم القناة من خلال مرآة القصة التى عاصر أبطالُها الأحداثَ، ولم تكن قصة وطنية خالصة بل تداخل فيها العنصر الدرامى، والخط الإنسانى الذى يربط واقعيتها برومانسيتها، ممتزجًا فى إطار واحد متكامل.

أما قصته هذه "**جفت الدموع**".. فمن أهدافه فى كتابتها، أنها تعكس أحداث الوحدة الكبرى بين مصر وسوريا، والقصة كما يقول يوسف السباعى: "لا تؤرخ ولا تسجل وقائع، وإنما هى تعكس

أحداثًا كبارًا من خلال حياة أبطالها، وأنها تعرض حياة أناس يشعرون، ويحبون ويعيشون فى تلك الفترة فهى واقع، وهى خيال، وهى دم وهى حب وهى مزيج يسجله كاتب جمع بين الواقعية والرومانسية، فى قلم واحد..!!

والرواية تبدأ بتصوير لـمشاعر أهل دمشق، وهم يستقبلون الأشقاء الـمصريين من أعضاء "مـجلس الأمة الـمصرى" استقبال الأحبة وهتافات لـمصر وسوريا، ومـجلس الأمة السورى، يستقبل الأمة ومـجلسها فى مطار الـمزة بدمشق عام 1957!

إذن، تبدأ الرواية بأحداث سياسية واقعية، بواقع حى ملموس.. بوفد رسمى، وأحداث جارية، وهتافات لزعيم مصر **"جمال عبد الناصر"** رمز الوحدة والنصر والـمستقبل الزاهر، والغد الـمشرق، وإيمان عميق ورغبة عارمة فى الوحدة بين البلدين الشقيقين.

"الوحدة آتية"، لا أحد يمكنه أن يقاوم هذا التيار الجارف، وهذه الرغبة العارمة فالقومية العربية إيمان غُرِسَ فى قلوب الـمصريين والشعب السورى الشقيق.

وتمتزج السياسة بالأحداث، وكان أنور السادات هو مبعوث جمال عبد النـاصـر للـرئيـس شكـرى القـوتلـى الذى حمل تحيات مصر إلى سوريا.

لقد وقفت وحدات الجيش المصرى، بجوار وحدات الجيش السورى أمام تهديدات المستعمر..!!

ويطعِّم السباعى هذه الأحداث بالعناصر التى تخفف من حدتها،

ويلطِّف من مزيجها، بقصة الحب العاصف الذى بدأنا به هذا التحليل للرواية.. بكلمات كتبت فى رسالة من "**هدى نور الدين**" المطربة.. إلى "**سامى كرم**" سكرتير عام "حزب الحرية".

ولكن، هل يمكن للمثل الأعلى أن يـحب، هل يمكن لكاتب مشهور وشخصية مرموقة لـها وزنـها فى الـمجتمع، أن يعيش ويـحيا كبقية الناس؟ هناك شباب يؤمنون برجل، بنموذج. هل من الـممكن أن يظهر علانية فى مكان واحد مع مطربة؟

ومطربة لها باعها فى السهرات والنفوذ، وهو عمره كله فى كفاح سياسى مع كلمة وجريدة وقاعات مجلس النواب.

ماذا تريد منه هذه المطربة التى تلاحقه؟

لاشك أنها مخدوعة فيه.. وهو لم يذهب إليها!! وماذا يريد منها هو؟ أهو غروب الرجل؟ أهو الرغبة فى الاستمتاع بها؟ كامرأة جميلة تحبه؟

ولكنه يحس نحوها بشعور جارف طاغ، شىء أقوى من إرادته.. شىء قوى قاهر جبار.

ـ أريد حبك..!!

هذا هو كل ما تطلبه مطربة جميلة مشهورة، من رجل سياسى مرموق، لا شىء إلَّا الحب. ما أعجب الحب، هذا الرجل الذى لا يتكلم إلاَّ بلغة السياسة والأحزاب، عرف كيف ينطق أخيرًا كلمة الحب، تلك الكلمة التى كان لا يصدق أبدًا، أنه سوف يتمكن من نطقها فى يوم من الأيام، لقد نطق بها سامى كرم.. نطق بها بكل بساطة وهدوء:

ـ أحبك أحبك، وسأحبك دائمًـا.

إن المشاعر الخفاقة التى تنطوى عليها هذه الرواية، لما يعجز عنه الوصف والتعبير، فشخصية سامى كرم، هى شخصية عامة، تصادفها دائمًـا فى مجتمعنا المعاصر، وتلتف مثل هذه الشخصية بسياج من كرامة المنصب، والحرص على نقاء السمعة، لذا كان التعرض لموقف حب، يمكن أن يحطم هذا الهيكل الإنسانى، يستدعى كثيرًا من التفكير، وكثيرًا من التأمل، وكثيرًا من الفطنة والذكاء أيضًا، فى عرض مجريات حوادث هذا الحب..!

فلو أراد الـمؤلف أن ينقذ موقف هذه الشخصية.. لما وضعه فى موضع الشك والريبة.. ولا فى موضع الـحيرة والتشتت والعذاب.. ولكان أوقف فى طريقه امرأة من نفس طينته ومنبته.. ومبادئه.. وهو بالفعل قد أوقفها مُمثلة فى "فايزة" سكرتيرته.. التى لولا ظهور الـمطربة "هدى نور الدين" لكان هناك احتمال لتجاوب ولقاء حب من الطرفين ـ سامى وفايزة ـ ولكن تـمسك السباعى بعرض مفارقات الـمستحيل فى حياتنا الاجتماعية، هو الذى جعله يغرق سامى كرم فى حب الـمطربة هدى نور الدين، حتى يمكنه أن يعرض الصراع القائم بين وضع الـمثالية والقيود، ووضع الانطلاق بلا قيود، والـخيط الرفيع الذى يربط ما بين الواقعية والرومانسية، خط متماسك فى قلم السباعى، فالـحياة فى نظره، وفى عقيدته لا يمكن أن تسير على وتيرة عمل، أو وتيرة قيد، فلابد للإنسان من أن يـحب، وأن يعشق، وأن تـهفو نفسه إلى حب يطلقه من إسار حياته الـجامدة، مهما ضحى فى سبيله من تضحيات، ولابد للحب من أن ينتصر على كل الـمعوقات، وكل القيود، فإنه قدر إما انتصار، وإما دمار!!

الحب والقومية

إن القومية العربية تسيطر على ذهن السباعى، وقلمه يسجل نوعًا يؤمن به كطريق لخلاص الشعوب العربية كلها، يحقق الخلاص من كل سيطرة خارجية أو داخلية، يؤمن به كطريق يحقق للشعوب القوة، لكى تتحرر من كل تبعية، ويمنحها الحرية لكى تحقق لنفسها العدالة الاجتماعية.

وسامى كرم، يمثل أحد أعمدة القوة، فهو الذى يقود الشباب، ويملؤهم إيمانًا وعزمًا، والقوى المضادة تتلمس له الهفوات والخطايا، والقوى المضادة قوية، وتحاول أن تبدد إيمانهم به، وتشكك فى كل ما يدعو إليه من قومية عربية، وقد أصبحت "هدى نور الدين" الشوكة التى تخز فى جنب هذه الوحدة. وهذا المبدأ، إنها إحدى الوسائل التى يهدمون بها المبدأ الذى ينادى به سامى كرم، إذن، فالحب فى هذه الحالة، هو معول هدم، لا معول بناء..!

وما المطلوب لإنقاذ مصير بأكمله؟

ـ المطلوب هو التضحية بالحب، فى سبيل المبدأ.

ـ ولكن الحب حق، ومن حقنا أن نحب؟ فهل يجب علينا أن نضحى

بهذا الحب، ونخرج من الحياة دون أن نحب، وما هو إلاَّ قدر كتب علينا ولا يد لنا فيه، وهل يمكننا نحن البشر، الهروب من وجه القدر؟

ولكن، ما ذنب هدى نور فى هذا الحب؟ ما ذنبها، وهى لم تذقه من قبل؟ إنها تبحث عن الإنسان: الإنسان النظيف، نقى القلب تتلمس فيه الحب والرقة والحنان والوفاء، وعندما وجدت كل هذه الأشياء الجميلة فى رجل هو "سامى كرم" هل من المعقول أن تتركه؟ وهى لا تمثل فى حياته إلاَّ الجانب الخلفى؟

إن هذا صراع مرير.. مرير.. صراع لابد له من نهاية!!!

كيف يعيش قلم السباعى أمجاد أرضه؟ كيف يتفاعل مع أحداث وطنه؟ إنه ينادى بانتصار الحرية ومصير معركة لابد لها من الانتصار مع الوحدة. ومحبى الحرية والسلام.

نعم.. إنه الحب، حتى فى معمعة العمل، وأحداث السياسة، يسترق سامى لحظات، ليعيشها مع صورة حبيبته "هدى" ويناجى صورتها.. إنها جزء لا يتجزأ من كيانه..!!

من الإغراق فى السياسة، إلى الإغراق فى الحب، ما بين الفكر القيادى، والقلب المنقاد، شتات حائر، جمع ومزج غريب فى شخصية إنسانية، تمثل رجلاً، لمسه الحب، وهزه الشوق إلى حبيبة غائبة، تتصارع كل المشاعر والعواطف فى لحظات ساهمة، يختطفها من بين مناقشات السياسة، ليعيش فيها ويخلو مع نفسه، وأشواقه على الورق..

يا للتناقض العجيب، بل يا له من أمر عجب، أمر هذا الحب!!!

تعجل يا زمن.. وإنه هذا الفراق الحتمى الذى يفرق بين قلبين وبين حبيبين وآه.. ثم آه منك يا حب!! يا ساحر.. يا قاسى ويا حبيب.

والنهاية لابد أن تكون خاتمة لكل شىء، ولكل شىء بداية ونهاية، فالمتعارف عليه أن الحب، زواج، والحب أولاد، والحب رابطة سامية تزيد التصاقًا وترابطًا بتمازج أسرة تكمل بعضها البعض..!

ولكن، ما حب سامى كرم؟ وما حب هدى نور الدين، ما غايته، وما نهايته؟ إن النهاية آتية، قريبة، قريبة، لاشك فيها وقد قربت النهاية ولابد من حسم الموقف بينهما..!

وأتت اللحظة الفاصلة، الفراق، وانتهى كل شىء.. هكذا.. هكذا.. وبكل بساطة ويسر..!

خاتمة مريرة.. تلك التى ختمت حب سامى وهدى، خاتمة تحدث دائمًا بين كل حبيبين..!!

ولكن.. كان هناك ما يلهم العزاء..!

الأيادى المتشابكة، على حدود الوطن العربى، والدماء المعدة، لكى تختلط على أرض معركة واحدة للدفاع عن وطن واحد، قد وثقت بينهما بأول رباط... رباط الوحدة بين شعبين، الأسطول المصرى، فى ميناء اللاذقية، وهذا أجمل عزاء، انتصار القضية العربية، والوحدة المصرية السورية.. وفى مطار المزة، كان هناك شعب يعانق شعبًا، وأمة تحتضن أمة..!

وبدت الوحدة وقتذاك، إحساسًا جارفًا بين شعب وشعب، لم تكن

قوانين تدرس، ولا خطط تدبر، بل كانت أقوى من ذلك، كانت تيارًا من المشاعر يهدر ليجرف فى طريقه كل عقبة، ويهدمْ كل حائل.

وكان هذا هو الحب الأكبر فى حياة مناضل، مكافح، كان رسولاً لأمته العربية، يكفيه أن حلمًا من أحلامه قد تحقق، ولكن الجرح لازال ينزف.. والذكرى موجعة، من حب ذهب، ولن يعود.

كانت تضحيته غالية، استشهاد فى الحب، لإنقاذ من نحب.. ونقدم أنفسنا قربانًا على مذبح التضحية، حقًا إنه لأسمى حب!!!

رحلت الحبيبة إلى المهجر.. إلى لا عودة.. لتعطى الحياة الكريمة لمن تحب.

المرأة فى أدب السباعى

قد يعتقد الكثيرون، أن موقف السباعى من المرأة فى حياته وفى أدبه.. كان موقفًا محددًا بنوعية الفكر، والارتباط بالمرأة، ففى مفهوم الناس، أن السباعى لم يرتبط فى حياته إلاَّ بامرأة واحدة فقط كانت خيال طفولته، وحلم شبابه، وأمل رجولته ومستقبله، هذه المرأة هى التى صورها فى معظم قصصه ورواياته، المرأة الشامخة، المتعالية، ذات الأنفة والكبرياء، المحبة، الصابرة المتفانية، هى القريبة وهى الحبيبة وهى الزوجة فى النهاية، وإلى آخر العمر...!

ولكننا إذا ما تمعنا فى حياة الفتى "يوسف".. وإذا ما سرنا فى دروب حياته وخيالاته وأفكاره، نراه يحب المرأة فى جمالها، هذا الجمال الذى يمثل له الزهرة اليانعة، يحب فى المرأة عفتها وطهارتها، وتستوقفه الملامح الجذابة، والجمال الآسر..!

كانت له نظرة، وكان له موقف، وكان يتوارى فى كل هذا خلف خجله.. ومن وراء صمته.. وتأمله..!

قطعًا.. لقد تآلف قلبه مع من تآلف، وتخيل.. وتاه.. وحلم.. وتمنى، وأحب، وعاش مع خيالات فتيات فى عمر الزهور، وفى رقتها

إنهن رحيق الحياة، ومادة القلم الحانى الرومانسى، ولم يكن خيال المرأة الوحيدة التى ارتبط بها فى النهاية، هو الخيال الوحيد، والحلم الأمثل.. بل كان هذا الخيال، يمثل له الحقيقة التى يتمنى أن تتحقق، وصورها فى قصصه ورواياته، هى من الواقع، ونسيجها من الخيال، أحبها واقعًا وخيالاً، ومزجها واقعية ورومانسية فى قصص بها من الواقعية الشىء الكثير وبها من الخيال.. الشىء الأكثر.!!

هذا الخيال الواقعى، كان يمثل له وفاء المرأة، واستحقاقها وأحقيتها برعاية زوج وأولاد، ومسئولية بيت شىء.. والمرأة فى حياة الكاتب يوسف، شىء آخر.. فمن أين تواتيه الأفكار، ومن أين يتراقص القلم بنغماته وأنَّاته الساحرة، ويعيش هائمًا فى ملكوت الحب وأحلامه من أين تبتدىء قصصه ومن أين تنتهى؟

كان لابد لكل هذا.. من إيجاد إلهام وخيال وفكر.

ولقد مرت فى حياته الكثيرات.. وتدلهت فى هواه الكثيرات، فكن مادة دسمة لقلم كاتب قيل إنه "رومانسى" ولكنه فى الحقيقة واقعى كل الواقعية، فلم يكن السباعى رومانسيًا، كما صورته أقلام النقاد، وكما صورته كتاباته، بل كان كاتبًا واقعيًا ينشد الرومانسية لكى ينشد بها المثالية الكاملة فى الحياة، وفى القصص، ينشد الوفاء الخالص للمرأة.

وإننا نراه فى قصته الأولى فى بدء حياته "الصفعة الثالثة".. وهى القصة التى تعرضنا لها فى بداية هذا الكتاب.. المرأة التى يريدها فى القصة، وفى الحياة، أو فتاة ضعيفة مستضعفة، أحبت فتى هو سيدها.. هامت به، نبذها، صفعها، ولكن صفعة الوفاء والحب الصادق تلازم

هذه الفتاة وتلازم هذه المرأة، فلم تنس حبها الأول أبدًا، هامت، وعانت، وتعذبت. وخيال هذا الحبيب لا يفارقها، إنها امرأة قلم "يوسف السباعى".

"قلم الوفاء" فبالرغم من قسوة الحياة، ومن صفعاتها.. فإنها أصرت على موقف، هو موقف الوفاء، كافحت لتصبح امرأة مرموقة، معروفة فى المجتمع وفى الوسط الفنى، اشتهرت، لمعت، وخيال حبيبها وحبها الأول لا يفارقها، لم يغيرها الترف ولا المال ولا الثروة ولا الشهرة، الحب فى عينيها، وبين أحضانها، وفى خفقات قلبها، تهدهده حتى تراه وتلمسه...

نادت حبها، نادت فتاها الأول، ونالت بعض فتات الحب.. فى محيط الترف، نادته بعطرها، بأنوثتها، نادته بجمالها وحبها وفتحت له ذراعيها، وفتحت له أحضانها، وبيتها، وقدمت له نفسها طواعية، لأمر الحب العميق الذى عاش معها حياتها وذلها، فقرها وعذابها، معاناتها وحرمانها، عاش معها يحلم بهذه اللحظة.

ونالت، ماذا نالت من حبها؟ الصفعة الثانية: إنه متزوج..!

من هنا نرى مدى تمسك يوسف السباعى فى قصصه وفى حياته، بشرف الارتباط الزوجى، وحفظ شرف الزوجية، وحماية كرامتها واسمها، إنها المثالية فى الوفاء، والمرأة هى المرأة فى حياة السباعى، وفى قصصه، صبرت المرأة، وصبرت، وحبها المطعون يدمى منها الفؤاد، ويحيل حياتها نارًا، وهى التى تتمرغ فى الحرير والذهب، ولكن الحب هو حياة المرأة فى مفهوم السباعى، والصبر هو طبيعة المرأة والوفاء هو المرأة نفسها فى مواقف يوسف السباعى.

ومن أجل الوفاء ومن أجل الحب، ومن أجل اكتمال صورة المرأة الصابرة الوفية المحبة ماتت زوجة حبيبها، ونادته ثانيًا، الكرامة تذوب فى حنايا المرأة حينما تحب، الحب هو سيدها، وهو كرامتها، وهو حياتها عزها وفرحها وكيانها، نادته بكل وفاء الأنثى الصابرة، فأتى إليها، ولبى النداء.. فى هذه المرة، ولكنه صفعها الصفعة الثالثة، لم يصفعها هو، بل صفعها القدر الغاشم، الذى يحدد مصائر الإنسان، مات الحبيب ولم تكتمل فرحتها به.. بعد كل هذا العذاب، بعد كل هذا الصبر والإيمان، لم يرحمها القدر.. ومات بين ذراعيها، وتكتمل صورة الوفاء الذى يشكل المرأة فى أدب وفى حياة السباعى، لم يجعلها تهجر الحب وتنكره، وتنغمس فى تيار الحياة ولهوها، ولكنه جعلها رمزًا للوفاء الدائم، والحزن العميق، تسربلت المرأة بالسواد طوال حياتها، وعاشت بذكرى حبها، وبالرغم من الصفعات التى نالتها فى الحب وفى الحياة فما زالت هى هى المرأة الوفية، يسجلها "قلم الوفاء"..!

هذه هى صورة المرأة التى يريدها "يوسف السباعى" فى قصصه وفى حياته، وما كان ارتباط قلبه وحياته بالمرأة الوفية التى تزوجها، إلاَّ إيمانًا منه، بأن هذه هى المرأة التى يجب أن تكون..!

وكتب السباعى **"إنى راحلة"**.. صورة مثالية للرجل.. وصورة مثالية للمرأة، هل هى حقيقة؟ هل هى خيال، هل هى ما كان يتمناه ويريده فى صورة المرأة التى يحب؟

وماذا كان فى روايته "إنى راحلة"؟ تكررت صورة المرأة كما كانت فى أول قصة له إلى الرواية التى بطلتها "امرأة أحبت"، صورة كاملة للوفاء النادر الذى يريده فى المرأة.

تعذبت بطلة "إني راحلة".. في حياتـها.. وهي تئن بمرارة ووطأة عذابـها في ارتباطها برجل ليس من بيئتها، ولا من شكلها ولا من طينتها، وخيالـها. يعيش بجوار حبيبها، هذه الـمرأة القوية، الصابرة الصامدة الوفية إلى النهاية، هي التي يريدها في الـحياة وفي القصة، الـحقيقة مع الـخيال..!!

وقد وجدها في قلمه، وصورها كما يـحلو له خياله أن يصورها، صورها بمزج الـحقيقة بالـخيال، لقد كتب الـحقيقة بغلاف رقيق شفاف من الرومانسية..!

إن المرأة في كل الحالات وفي كل قصص السباعي، ودائمًا يصورها شمعة تحترق، وتذوب وتفنى في حياة رجلها، وحبيبها، ويجد أنه لا حياة لها من بعد الحب الذي رحل عنها.

فالوفاء عند السباعي هو "امرأة"..!

ويصف السباعي المرأة.. بأنها الوقود الذي يحرك الرجل، وأنه ليس هناك من ينكر أنه ما من مطمع للرجل إلاَّ وكانت الرغبة الدافعة إليه، هي إرضاء المرأة، مهما حاول الرجل إنكار ذلك..!!

كان السباعي يرى في الـمرأة دائمًا الوجه الفاضل في القصة، وفي الـحياة، يراها نموذجًا للوفـاء والتفاني، وكانت الأم هي النموذج الأمثل للمرأة في نظره، وهي من بدأ معها أول مسيرة لـحياته، ولـم تكن له أخت حتى يعرف الـمرأة كأخت، ولكنه حاول أن يعرفها بـهذه الصفة من خلال قريبات وصديقات، فكان يرى فيهن دائمًا الوجه الفاضل للمرأة الـمصرية بكل ما فيها من طيبة وعطف وحنان، زوجة، وأما، وربة بيت.

وكانت المرأة فى حياته هى الأم والزوجة والابنة، وكان منه "قلم الوفاء"!! فلقد وهبته المرأة أجمل تجارب الحياة، وأعطته دائمًا من الحياة وجهها المشرق الوضاء.. وجمالها المادى.. والمعنوى..!!

الفصل الثالث

مواقف يوسف السباعى من أدبه

إننا لا نقوم بنقد أو تقييم الأعمال الأدبية ليوسف السباعى.. فلقد قام بعملية النقد الكثيرون، أما ما نريد إبرازه فى هذه الدراسة فإنما هو موقف العمل الأدبى أو موقعه.. أو المذهب الذى ينتمى إليه.

ففى القصة القصيرة، ونتعرض هنا لقصته **"فى الجنة"** من ـ مجموعته **(يا أمة ضحكت)** التى صدرت فى عام 1948 ـ نرى منذ بدايتها أن الخيال قد امتزج بالواقع، فهو يصور الجنة كما تراءت له.. أو كما تخيلها..!

ومن هذا الخيال الجامح.. الذى جعله يتصور أنه يعيش فى الجنة.. نرى أنه يصور خداع الإنسان، إن الحارس سوف يكتشف فراره، فلن يترك فرصة لضميره ليسأله عما ينوى أن يفعله، بل على الفور سوف يحضر أول إنسان يصادفه، ويصعد به إلى السماء، بدلاً منه وكأن شيئًا لم يحدث، تبديل إنسان بإنسان فى عرف الحارس، شىء طبيعى من طبائع البشر..!

ووجد نفسه فى الجنة..!

وهنا.. تتجلى شفافية روح الكاتب ورومانسيته الفائقة وخياله الواسع.. فى وصفه لشاطىء النهر، والخضرة، والنهر السيال..!

خيال يجعله يلقى بنفسه فى النهر، إنه نهر من العسل وليس من الماء، لم لا؟ أليست هى الجنة.

وتمتزج هنا السخرية بالخيال، بالوصف، بالحقيقة، بالواقع، فهو يصف الإنسان على حقيقته، ويصف نفسه، مثل قفص من البلح الأمهات والشهد يقطر من جسده.

ثم ننتقل إلى الرواية، ومن أهم الروايات التى كتبها السباعى والتى تنتسب إلى "المذهب الرومانسى" أو المدرسة الرومانسية"..رواية "**بين الأطلال**"، ولكننا إذا ما حللناها تحليلاً واقعيًا، لرأينا أنها ليست بالرومانسية الخالصة، بل تنتمى أيضًا إلى المذهب الواقعى!!

وكما تدخل رواياته "إنى راحلة"، وجفت الدموع، وغيرها.. فى مدخل المذهب الرومانسى الواقعى، فإن رواياته التى تعتبر مذهبًا واقعيًا خالصًا، هى "**أرض النفاق**" و(**السقا مات**).!!

ويمكن تفسير ذلك، بأن الخيال قد أوحى للمؤلف، بأنه يمكن أن تكون هناك حبوب لمنع النفاق، وهذا بالطبع شىء مستبعد فى الواقع، ويمكن تعاطى هذه الحبوب، لإصلاح فساد النفوس والمجتمع، وهذا كله من نسج الخيال والميل إلى المثالية التى ينشدها فى إصلاح المجتمع، وهذه المثالية هى طلب المستحيل فى أرض هى "أرض النفاق"، ومن ثم تجمع ما بين الواقعية والرومانسية.

ونرى فى معظم روايات "يوسف السباعى" أنه يؤمن بالقدر إيمانًا أعمى ولا يصيب الإنسان إلاَّ قدره، تمامًا كما يؤمن بالحب، وبأنه أقوى قوة فى الوجود، فالقدر والحب شيئان مصيريان لا يد للإنسان فيهما، ومنهما يتحدد مصيره، وهو لا يد له فى أحدهما.

والقدر هو سيد الموقف عنده، ومن تعبيراته المتكررة:

"هذا إنذار من القدر"، "وبدا لى أن القدر يبتسم فى حب"!! وأيضًا (وعلىَّ أن أرضخ لمشيئة القدر).

فالقدر فى كل مواقف السباعى هو سيد الموقف، ويأتى دور القدر عنده فى عملية الموت، "إنه قدر حتمى".

إن تجربة الموت فى أدب يوسف السباعى، تمثل الواقعية بكل أبعادها، ففى تحليله للموت، يواجهه، ويفهمه على أنه حقيقة من الحقائق البسيطة، إنه انطلاق من سجن الحياة، وتحرر من قيود الجسد..!

ومثل هذه المواجهة، تمت فى روايته **"نائب عزرائيل"** إن عزرائيل يخشى على نفسه من معرفة الناس بسر الموت، وماذا لو عرفوه، عندئذٍ لن يرهبوه، ولن يخشوه.

ومن الواقعية الشديدة، إلى الرومانسية الشديدة نرى المزج ونرى أرق مشاهد الغرام، وبديع مناجاته، تلك المناجاة الحلوة التى كانت تدور بين "أحمد" وبين "عايدة" فى روايته **"إنى راحلة"**..!!

كما أن الواقعية فى أعمال السباعى.. تمثل البيئة الشعبية.. كما لم يصورها كاتب.. وتلك النماذج الحية التى يخرج بها من حى السيدة زينب وروض الفرج والدرب الأحمر.. وسيدى زينهم.. وحارة السد وجنينةناميش وشبرا، هذه الشخصيات لنماذج تعيش فى بيئة، بواقعها الحى الملموس، وحياتها الواقعية، بما فيها من حقائق، وأحلام.. وآمال لم يصورها إلاّ قلم السباعى الواقعى، الساخر.!

ويلاحظ التفاوت الكبير فى أعمال السباعى، بين الإغراق فى الحزن والإغراق فى المرح والفكاهة، بين شطط الخيال الجامح، وواقعية الأحداث الملموسة التى يمزجها بالخيال، فبينما نرى رواياته مثل "إنى راحلة"، و"بين الأطلال"، وغيرها تنتهى بالنهايات المفجعة، نجد أن هناك بعض رواياته وقصصه، تغرق إغراقًا تامًا فى السخرية والنقد المرير اللاذع، فى صورة خيال، فهو يتخيل أنه قد مات، وأنه فى السماء وأنه قد غافل الحارس، وهرب إلى الجنة، فلا يسع الحارس إلاّ أن يستبدله بواحد غيره، لئلا يحاسب على تهاونه فى أداء عمله، وهذه اللمحة ترينا مدى التزام الإنسان بعمله وواجبه..

والقصة القصيرة، باب اعتبره يوسف السباعى، معبرًا إلى الواقعية والسخرية والفكاهة والعـبرة، حتى فى إهدائه لـمجموعاته القصصية فهو فى مـجموعته "يا أمة ضحكة"، يـهديـها إلى الـحمير الكبار.. ثم يتحسر على الإهداء الذى ذهب هباء... فما من حمار سوف يعترف بأنه حمار..!!

ويكفى أن نرى أسلوب كتابته الفكه فى المجموعة القصصية "**الشيخ زعرب**".. ثم هذه القصة التى يرويها عن "**طربوش حسن أفندى**" ويدع الطربوش، نفسه يتحدث، ويروى قصته.

وقصة طربوش "حسن أفندى" قصة طريفة، فهو من عوجة حسن أفندى على حاجبه الأيمن، وذلك ستارًا له من هواية "البصبصة" التى يمارسها من تحت الطربوش وما أكثر وما أشد ما يميل الطربوش على أحد حاجبيه، للممارسة المعهودة، وكأن عليه واجبًا لابد من تأديته.

ويتحول حسن أفندى من المغازلة الشفوية إلى المغازلة العملية.. ويترك مقعده على المقهى، ويهرول وراء المرأة التى تعجبه.

ولكن.. كانت هناك واحدة فقط هى التى تتحكم فى زمام قلبه هى "زكية، بنت أم زكية".!

وتصل الفكاهة إلى الذروة، عندما يجعل السباعى ثلاثة طرابيش تتحدث، وكلها تشرفت برأس "حسن أفندى" والطرابيش أبدًا لا تستقر على رأسه، وتتبدل الواحد وراء الآخر، عند مكوجى الطرابيش..!

وما زاد على حده فى هذه القصة، ما يرويه عن "شبشب زكية الحنش.. وكيف أن الشبشب نفر من رائحة قدميها، ولم يرتح لصحبتها..!

ولو أنها كانت تلبسه فى غرفة نوم أنيقة فاخرة الفراش.. مكسوة كلها بالساتان الأزرق، لذا اختارته زكية الحنش للونه الأزرق، ليتماشى مع لون غرفة نومها.

والمفارقات مضحكة فى حديث الشبشب. ذلك الذى يدور بينه وبين زكية الحنش.. فى القصة القصيرة، "زكية الحنش" من المجموعة القصصية نفسها "الشيخ زعرب".. لنرى من أى حضيض وصلت.. وبالرغم من كل هذه الروائح والعطور، فإن رائحتها ما زالت كريهة كالمنبع الذى أتت منه..!

ثم.. فى النهاية.. كان الشبشب سلاحًا فى يد "زكية الحنش"!!

القصص خيالية.. أو رمزية تصور الواقع أبلغ تصوير. الأولى فى صورة طربوش يتحدث، والثانية شبشب.. وما كل هذا التحايل إلاَّ لكى يقدم صورة حقيقية لواقع يعيش فيه كل من حسن أفندى.. وزكية الحنش.. وهما نموذجان من النماذج البشرية التى صورها السباعى أبلغ تصوير فى الأحياء الشعبية، التى تفنن فى إبراز ملامحها الدقيقة، وخباياها الدفينة..!!

وما دمنا بسبيل الحديث عن القصة القصيرة.. فلابد أن نشير إلى تلك المجموعة القصصية التى صدرت فى عام 1956 من - دار النديم - تحت عنوان **"ألوان من القصة المصرية"**.. وهى مجموعة اشترك فيها مجموعة من شباب القصة فى ذلك الوقت (كبار كتابنا الآن) وهم **"محمود تيمور - إحسان عبد القدوس - أحمد رشدى صالح - أحمد عباس صالح - إسماعيل الحبروك - أمين يوسف غراب - عباس الأسوانى - عبد الرحمن الخميسى - عبد الرحمن الشرقاوى - لطفى الخولى - مصطفى محمود - يحيى حقى - نعمان عاشور - يوسف إدريس - يوسف الشارونى - ويوسف السباعى.**

وقد كان هذا الجيل من الكتاب يمثل جيل الشباب فى ذلك الحين.. وقدم لهذه المجموعة المختارة من أدب الشباب فى القصة.. عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين بقوله:

"لقد قرأت هذا الكتاب.. وترويت فيه، فرضيت عنه، وأشفقت منه، فأكثر ما فى هذا الكتاب مظلم حالك، فما أجد أن يشفقوا على

أنفسهم ويشفقوا على قرائهم، ويأخذوا الحياة بالجو الباسم، لا بهذا اليأس القاتم المخيف"..!!

وأننى ألقى سؤالاً ثقيلاً: أأدب هو، أم كلام من الكلام؟

وكانت ليوسف السباعى قصة فى هذه المجموعة.. تحمل اسم "نابغة الميضة".. وقد أدرجها بعد ذلك فى مجموعته القصصية "يا أمة ضحكت".

ثم بعد ذلك بأعوام طويلة، نرى د. طه حسين.. يقيِّم وينقد خمسة أعمال ليوسف السباعى فى كتاب "الفكر والفن" فى أدب يوسف السباعى" هى: إنى راحلة، وطريق العودة، ورد قلبى، ليل له آخر.. وأقوى من الزمن.

وما أبعد الفرق بين تقييمه الأول لأعمال الشباب، وتقييمه الثانى الذى يفصل بينهما عشرات السنين.

إنه يقول عن "إنى راحلة":

- إنها قصة ممتعة حقًا، أخذت فى قراءتها فلم أدعها حتى أتممتها، ولم أفعل ذلك متكلفًا أو صابرًا عن نفسى عليه، وإنما القصة هى التى اضطرتنى إليه اضطرارًا، وحملتنى على أن أفرغ لها، وأترك ما بين يدى من عمل لم يكن تركه عسيرًا.

ويقول عن قصة طريق العودة:

- إنها قصة رائعة بأوسع ما فى هذه الكلمة وأدقها، وما أعرف أنى قرأت للأستاذ يوسف السباعى بعد قصته البارعة "السقا مات" شيئًا يشبه هذه القصة، فى روعتها وإتقانها، وإمتاعها!!

فكأن طه حسين قد اقتنع اقتناعًا تامًا بأستاذية يوسف السباعى فى القصة، فتكلم عن "رد قلبى" واعترف بأنها قصة جديرة بأن تقرأ حقًا وأن تقرأ فى أناة ومهل، لا فى سرعة وعجل.

وهكذا نرى.. كيف أنصف عميد الأدب العربى أعمال يوسف السباعى.. وإن كان لم ينصفها فى بداية حياته الأدبية، وهذا دليل على ارتقاء هذا القلم، وتمكنه كلما مرت به الأيام والليالى..!!

فهو لا يشبهها بليالى الشتاء، ففى ليالى الشتاء، طول ممل، وليس فى قصة السباعى على إغراقها فى الطول، ما يمل.. أو يغرى بالملل، وإنه لواجد فيها ألوانًا من العلم، تعرض كلها فى كتاب.. فحياة الجند فى ثكناتهم، منذ يصبحون إلى أن يظللهم الليل، منذ يمسون إلى أن يسفر عنهم الصبح، والصلة بينهم وبين الضباط على اختلاف مراتبهم، ومنازلهم، فى نظامهم العسكرى، كل هذا تجده مفصلاً فى القصة، تفصيلاً يرضى الحاجة إلى المعرفة والاطلاع.

ونجد هذا ممثلاً تمامًا فى تصوير يوسف السباعى لحياته، فهو يذكر كلمة "دفعة"، والدفعة كلمة عزيزة عليه، تنتج من الصحبة وطول العشرة، فالدفعة هم الذين يدخلون الجيش فى دفعة واحدة.

وأعتقد هنا.. أن طه حسين لم يقدّر واقعة النكتة المليحة والفكاهة والأسلوب المرح فى أدب يوسف السباعى.. فى تحليله لقصته الأولى "نابغة الميضة" فى كتاب (ألوان من القصة المصرية).. وقال إن أدب الشباب قاتم مظلم.. مع أن الفكاهة والمفارقة تغلب فى هذه القصة على القتامة والإظلام.. وفى كل قصصه تقريبًا منذ بداية

عهده بالكتابة حتى نهاية ذلك القلم الشقى اللماح، والنكتة الذكية المليحة، شىء أساس عنده.

ومما كتبه النقاد والكتاب عن فن وأدب "يوسف السباعى" يمكننا أن نحدد موقعه من هذا الأدب!!

فلقد قالوا عنه: "إنه يمزج التجربة الوجدانية والسياسية.. ومن الصعب جدًّا أن يوضع يوسف السباعى فى خانة أو مجموعة معينة، أو يقولون عنه إنه ينتمى إلى مذهب أدبى بعينه أو مذهب اجتماعى ما، فإن الفنان الأصيل.. لا يمكن أن يسجن بين جدران المذاهب الاجتماعية أو يصب فى القوالب الأدبية.

ويعتبر يوسف السباعى بإجماع الآراء، بأنه مؤرخ للثورة أرخ تأريـخًا فنيًا، يقرأ بدون حواجز على مر الأزمان. وأنه قد أدى رسالة الفن والأدب كاملة، كما يجب أن تكون.

وهو فى روايته للأحداث التاريخية، يصطنع الصدق الخالص ولا يمزج التاريخ بالخيال، وهو فى سرد الأحداث التاريخية، قصاص بارع، إنه لا يسرف فى المبالغة، وإنما يروى التاريخ رواية صادقة، وفى قصصه روعة تسحر النفوس، وتملؤها إعجابًا من جمال الوصف ودقته وجزالة اللفظ ورقته..!

وهو المؤرخ لكل الأحداث السياسية والوطنية، فلقد قام بتصوير الحياة المصرية فى الربع قرن الأخير، تصويرًا صادقًا، شيقًا.... مازجًا ما بين الواقع، والصورة المثالية التى يريد أن يكون عليها مجتمعنا المصرى.

ففى رد قلبى.. قام بتصوير قيام الثورة، تصويرًا رائعًا.. وفى رواية "**نادية**" صور فيها تأميم القناة، وما تبعها من أحداث وفى "**جفت الدموع**" كتب أجمل قصة، وصور أروع صورة للوحدة بين مصر وسوريا.

وفى مسرحية "**أقوى من الزمن**" سجل أحداثًا تدور حول بناء السد العالى فى أسوان. (هذه الدراسة لا تشمل المسرحية)!

إن السباعى يملك رؤية ثورية، وهو مبشر بالثورة، ويصف حياة الناس البسطاء المطحونين بين براثن الفقر والإذلال، ويحضهم من خلال إبداعه الفنى، على الثورة.

فأرض النفاق فى حد ذاتها، منشور ثورى، ينتقد فيها الأوضاع الظالمة انتقادًا مريرًا، وهو يعرض فيها أقسى المواقف، بأسلوب ساخر، يقطر مرارة، وينضح ثورة، ويضج بضحك كالبكاء.

وهو قادر أن يصفع بقلمه أولئك الذين يلعبون الأدوار الكبرى على مسرح الحياة، أقطاب الجامعة العربية يجتمعون ليتبادلوا الخطب، ويلتقون فى المآدب على الموائد الحافلة، ليشربوا نخب فلسطين الضائعة، على موسيقى شاذة من أنين الضحايا، ونواح الثكالى، ونشيج اليتامى.

هو كاتب حر جرىء، احتسى جرعة شجاعة، اشتراها من تاجر أخلاق، واندفع فى ثورة شجاعة، يحارب الأكاذيب التى شوهت حياتنا.

ويمكن أن نسمى قصة "أرض النفاق" بأنها قصة رمزية.. صنعها

الفكر والضمير، وأداها الخيال والقلم، لنرى فيها المجتمع عاريًا من ثياب الزيف والرياء..!

إن أرض النفاق نقد صريح جرىء للمجتمع فى بناء خيالى لطيف..!

كما قالوا عن السباعى إنه كاتب الثورة، وقالوا عنه إنه من أهم دعائم القصة الرومانسية فى الرواية المصرية الحديثة، وإنه أسطورة رومانسية. لا يعيش إلاّ للحب، ولا يكتب قلمه إلاّ الحب، فالحب هو لعبة يوسف السباعى الفنية الأولى، وإنه كاتب يهتم اهتمامًا فائقًا بتصوير العلاقات الإنسانية بين الجنسين، فى شتى مواقفها، متعمقًا فى أحاسيس الهوى..!!

ثم قالوا عنه إنه كاتب قصص البطولة، ومصور بارع لنضال الشعوب، ومؤرخ صادق أمين من مؤرخى الثورة، وقالوا عنه إنه كاتب يمزج قصصه بالعصير الشعبى، بحيث تتضمن أحاسيس الشعب، قيمه وأخلاقه، وأنه الكاتب الإنسان الذى يعيش المشاعر الإنسانية ويحللها بدقة، ويصور أدق خلجات النفس الإنسانية.

وقالوا.. إنه الكاتب المثالى الذى ينشد المثالية فى دنيا ضاعت فيها المثل، والمثالية..!!

ومن كل ما قيل، ومن كل ما كتب، فلا يسعنا إلاّ أن نحدد الموقع الصادق لأدب يوسف السباعى من الحياة، فهو أديب من أدباء الحياة، عاش فيها، وصورها، بقلم صادق مع الحياة ومع نفسه، ومع قرائه، اتخذ كل الحيل الفنية، وكل المذاهب الأدبية، ليتوصل بها إلى النقد

الاجتماعى والسياسى، وطاف بنا فى عالم الرؤى والأحلام، وهبط بنا إلى دنيا الواقع والأحياء الشعبية، لينتقد فى شجاعة وقسوة، الأوضاع السياسية والاجتماعية، والأخلاقية التى كانت سائدة فى مجتمعنا قبل ثورة 23 يوليو 1952 وتمكن فى وضوح، أن يدعو إلى الثورة ويبشر بها... وبجانب كل هذا، فلم يبعد يوسف السباعى عن مزج التجربة الوجدانية وتشريح العواطف الإنسانية، وتصوير أهواء النفوس والقلوب بأرق ما فى كلمات الحب والعشق من تصوير..!!

وكان التسجيل النهائى لأعمال السباعى الأدبية فى موازين الأدب أنه: كان مؤرخًا لثورة 23 يوليو.. واستطاع فى براعة ورشاقة أن يمزج بين التجربة الوجدانية وبين التجربة السياسية والاجتماعية، من خلال أعماله التى قدم فيها نوعًا رشيقًا خصبًا من الفن الهادف الملتزم..!!

والآن: هل مازال السؤال حائرًا على الشفاه؟ والتساؤل يحير ويثير الكثيرين، عن المذهب الأدبى للسباعى..؟!

هل بعد كل هذه الشواهد والإثباتات لإنسان يعيش ويحيا الحياة، بكل ما فيها من مفارقات مضحكة ومبكية، وبكل ما فيها من مآسٍ وآلام، بكل ما فيها من نفاق، ورياء وخداع، بكل ما فيها من خير وشر.. بكل ما فى الإنسان نفسه من نوازع تجنح إلى الشفافية، وغرائز تهبط به إلى الحضيض.!

الإنسان بكل ما فيه من موبقات؟. بكل ما فيه من تناقض وأهواء.. بكل ما فيه من جشع واستغلال، وحقد ونميمة، بكل ما فيه من طين وبلاء.

وهل مازال التساؤل حائرًا ما بين كتابات يوسف السباعى الغارقة فى الرومانسية؟ أم أن أحداث أعماله الأدبية وما سقناه كلمحة خاطفة، تثبت وتقرر، وتحدد موقفه من الأدب... ومن الحياة.

الموقف واضح جدًّا، فالحياة أمامنا منبسطة فى كتاباته، وبدون أى مجهود، سوف ندرك ونقرر على الفور أن "يوسف السباعى" ما هو إلاَّ أديب وفنان إنسان، فهم الحياة، وحاول أن ينقل فهمه إلى القراء، لعلهم يفهمون.

إذن، انتهى التساؤل هنا، وتوقفت الكلمة الحائرة. وأدرك كل إنسان يحيا فى هذه الحياة، أن "يوسف السباعى" ما هو إلاَّ "أديب من أدباء الحياة".

الفصل الرابع

بين القومى والإنسانى

عرف يوسف السباعى معنى الأصالة القومية، فرسم الشخصية المصرية بأبعادها، ومدلولاتها، بكل صدق، ونقاء فكرى، وأدبى، وصور الواقع العربى.. واليقظة القومية، فى فنه وأدبه.. أروع تصوير، وانطلق قلمه يشق طريق النضال من أجل الحياة، حياة الإنسان المصرى والعربى.. إيمانًا منه بحقه فى حياة أفضل.

وكانت مصر هى المحور الرئيسى فى أدبه وفنه، وقد أبرز عشقه وتفانيه وانتماءه إلى أرضها، فى كل ما خطه قلمه، وما جاشت به نفسه من عواطف، وارتباط دائم بالأرض وفى تسجيل متصل دائم، لكل الأحداث الوطنية.

وكان ملتزمًا كل الالتزام بتصوير ثورات بلده، حيث تمكن فى جميع أعماله الأدبية القومية والوطنية من الوصول إلى مستوى عالمى يتساوى فى تسجيل أحداث الثورات كما فى رواية **"الحرب والسلام"**.. **"لتولستوى"** وكما فى **"قصة مدينتين"**.. لـ**"تشارلز ديكنز"** الذى صوَّر الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات الوطنية العارمة، والتعايش التام مع الأحداث.

بروح المصرى الأصيل، والجندى الأصيل، والمحارب الشجاع، والوطنى ـ الكاتب الذى يرى لزامًا عليه أن يسجل أحداث الوطن، بما حمل من التزام الجندى.. وككاتب شاهد على عصره، وعلى ذاكرة التاريخ.

ونأتى إلى روايته "**ابتسامة على شفتيه**" حيث نلمس من مقدمة هذه الـروايـة.. الإصـرار التـام، وشدة التمسك بتحرير الأرض. حين يقول:

"كنا أصل الحضارة، وشعوب العالم تعيش فى ظلمات الجهل، ونهب الاستعمار مواردنا، واستعبد شعوبنا، وحطمنا القيـد وبـدأنا نحقق حريتنا، ونخطو نحو التقدم الاجتماعى، والبناء الاقتصادى، تلك هى مسيرتنا الطبيعية، ولكنكم أوقفتموها ونزعتم الأرض من تحت أقدامنا، ثم تسألوننا الآن: لماذا لم تخضِّروا الأرض؟ أى أرض؟ التى سرقتموها؟"

إنها قضية الفلسطينيين فى الأرض المحتلة ـ حرية الانتقال، والعودة.. حق تقرير المصير، هذه القضية، التى لا ييأس أبدًا من طرحها، وإثارتها حتى يرجع الحق إلى نصابه، ويثيرها يوسف السباعى ـ فى روايته "**ابتسامة.. على شفتيه**" حين يهدى هذه الرواية.. إلى الشهيد.. الذى بذل رفضه من أجل بعث الروح الفلسطينية والذى جعل من جسده الطاهر معبرًا للعودة.

ويصور السباعى، صورة لا تبهت، فى "سوق القدس القديمة.. وحانوت الشيخ عبد السلام، وعمار ابنه الذى يعاونه فى الحانوت.

وحتَّى.. مدرِّسة الرسم تريد أن ترسم صورة لابن عمها "عمار" وهو يبتسم..

حتى يتعوَّد الابتسام.. ويقابل الزبائن "بابتسامة على شفتيه" قائلة له:

"سأرسمك وأنت تبتسم، لأريك كيف يمكن أن تكون إنسانًا آخر "بالابتسامة على شفتيك" وعادت "مى" إلى الشرفة، وعاد عمار.. يغمض عينيه.. ويسند رأسه.. إلى حافة المقعد..

وعاد صوت "مى" يتردد فى مسامعه كيف يمكن أن تكون إنسانًا آخر بالابتسامة على شفتيك..؟

كيف.. وكيف.؟"

صورة تأبى أن تبهت، أو تضمحل، منذ زمن بعيد، وهو لم يزل طفلاً فى بيتهم خارج مدينة القدس. فى دير ياسين.

استيقظ على انفجار مروع.. هز جدران البيت، وأقبلت أمه جزعة.. وضمته إليها.. وأقبلت خالته، وهى تجر - ابنتها - مى.. فى يدها وهى تصرخ بآلية..

وكانت خالته.. حاملاً ومن الحديقة.. أقبل أخوه الأكبر "محمود" يصرخ فزعًا.. وهو يصيح:

اليهود يهاجمون البلدة، وسمعت الانفجارات، وانفجار يتلوه انفجار. والطلقات تتوالى..

وسمع أصوات جرافات وثم ضجيج وصوت أقدام كثيرة تقترب من البيت.. وأصوات تتزاحم فى الحديقة، ثم أقدام تصعد الدرج.

وأسرعت أمه، تجمعهم وراء ستار باب الشرفة العريضة، وطلبت منهم أن يكتموا أنفاسهم، حتى يغادر اليهود المنزل.

ويتناول "يوسف السباعى" فى عرض مثير أخاذ، ما حدث فى هذه المذبحة. وكيف بقر اليهود بطون الحبالى.. وهم يقهقهون فى وحشية، دونها وحشية التتار..

وتمر السنون، ويطوى الزمن أشياء كثيرة ضاعت، ولكن الصورة التى لا تبهت هى صورة السونكى، والبطن المبقور.. والدماء المراقة، والطرق المليئة بالجثث.

ثم علا صوت الراديو.. ليعلن أن هجوم إسرائيل.. قد بدأ فى كل مكان..

وفى الساعات الأولى.. توالت الأنباء المبهمة..

الطائرات الإسرائيلية.. تتساقط فى سماء مصر.. عشر طائرات.. عشرين. ثلاثين.. أربعين ـ ستين ـ ثمانين هكذا.. تتهاوى كالذباب.

والجيش الأردنى.. يتقدم.

والجيش السورى يضرب..

والإذاعة تنطلق محمومة بالأناشيد.

اضرب.. اقتل.؟

وبدأت الإذاعات المحمومة تنقشع..

وضاعت الجولان.. والضفة الغربية.. وسيناء.

وكانت معركة المواجهة الكبرى..

ـ قال عمار:

المواجهة غير ممكنة..

قال يحيى:

أنا سأبقى.. لأشغلهم بالنيران هناك.. وبدأت المواجهة فى الكوخ.. بالسلاح الأبيض وهجم حمزة.. وعمار.. ويحيى.. بالمدى.. وأصاب

الإسرائيليين ذعر شديد.. وهم يرون المدى تطبق عليهم.. لتشق البطون والصدور.

وبدأت أصابع حمزة.. تطبق على الأعناق.. وانتهت المعركة فى دقائق بدت كأنها الساعات..

قال حمزة:

أنا إنسان.. ولا معنى من ارتكاب الخطايا، لقد رأيتهم يشقون بطن أمى.. وهى حامل..

كانت سخافة منهم.. ومن يومها.. أقسمت ألاَّ أكون أقل سخافة.

وهكذا.. انطلق الثلاثة من المزرعة ليواصلوا الانقضاض على القوات الإسرائيلية المتغطرسة.. ويحولوا رحلتها السياحية ـ إلى نزهة دامية:

واستمر تدفق الدبابات الإسرائيلية فى أرض الأغوار..

وواصل الاثنان قذف القنابل وشل فلول الدبابات.

وفى الشمال.. كانت الدبابات تتدفق على طريق الكرامة. من شمال البلدة وجنوبها.. وفى كل مكان.. من الأرض المحتلة.. فدائية. واستبسال.

وختمت رواية "ابتسامة على شفتيه" بإشراقة على الطريق.

وكانت معركة العمر.

إما أن نكون.. أو لا نكون أبدًا.

معركة العمر يا حمزه..

وقفز عمار.. ليهبط على ظهر الدبابة.. وبرشاشة.. قضى على كل من فيها..

واستمر رشاشه يضرب ويضرب.. حتى صمت فجأة.. أسكتته طلقة صوبت من الخلف..

واستلقى عمار.. بين يدى يحيى.

وتمتم ـ دُمرت الدبابة..

ـ أجل يا عمار

ـ وتوقف الطابور..

ـ وانسحب

ـ الحمد لله.

واستطرد عمار:

ـ عدنا نحن يا يحيى..

فمازالت هناك. معارك كبيرة أمام الآخرين.. حتى نحقق وجودنا.

ـ لى عندك رجاء يا يحيى: اعط هذا (لمى) خاتم الخطبة الذى وعدتها به. اعتذر لها يا يحيى.. تمنيت أن أعود لألبسها الخاتم ولأحدثها عن أشياء كثيرة حلوة.. تمنيت أن أعود لأجلس أمامها.. لترسم الصورة. ولأعتذر لها عن كل ما قلت من سخافات.. ولأقول لها.. إننى أحبها.. كما لم أحب أحدًا فى حياتى..!

وصمت عمار.. أرخى جفنيه.. واسترخى. وشاعت فى قسماته السكينة.. والرضا.. وأخرج زفرة مكبوتة.

وانطلق يحيى.. يواصل القتال..

الخاتم فى جيبه.. والمسدس مشدود إلى حزامه.

وقبل الظهر.. بدأت طائرات الهليوكوبتر الإسرائيلية، تلقى منشوراتها، تدعو أهل البلدة.. إلى الاستسلام.. وتقنعهم أن هدف الهجوم.. هو قوات العاصفة.. وليس المدنيين.

وسكت الدوى.. وساد السكون. وبدت "الكرامة" أطلالاً تتصاعد من أنقاضها.. أعمدة اللهب.. وسحابات الدخان الأسود.. وأخذ الجنود.. ينفذون وعدهم بالأمان.

قتلوا الأطفال، والنساء.. ومثَّلوا.. بجثث الشهداء..

وجلست "مى" تستمع إلى الراديو هاتفًا:

"صرح ناطق رسمى.. فى حركة التحرير الفلسطينى "فتح"، بما يلى:

واستمر المذيع.. يواصل إتمام البيان و"مى" تطلق زفراتها: الحمد لله.. الحمد لله.. وفى غرفتها.. وقفت ترقب صورة "عمار" وقد ارتسم العبوس على وجهه.

ـ اضحك.. اضحك يا عمار..

لقد انتصرنا..

وسمعت خطوات تقترب من الباب.

ـ أيمكن أن يكون.. هو..؟

فقد تعوَّد أن يأتى مع ضوء الفجر.. مع الشعاع الأول من النهار.

وطرق الباب..

ـ من بالباب..

ـ أنا "يحيى" يا "مى"..

ـ مالك يا يحيى..؟ أين عمار..؟

وارتمى يحيى منهارًا..

وتساءل الشيخ عبد السلام.. فى صوت منشرح:

ـ لم يعد عمار يا يحيى ـ لم يعد.. ولن يعود.. يا رب.. رحمتك يا رب رحمتك.

أقبلت "مى".. تهز يحيى.. مشدوهة:

ـ عمار لن يعود.. لن يعود..

لماذا.؟ لماذا.؟

ـ قال لى.. أن أعطيك هذا الخاتم..

وأن أقول لك.. إنه تمنى لو استطاع أن يضعه فى أصبعك.. بنفسه.

وصرخت "مى"..

ـ لن يعود عمار..

وملأ وجه مى.. إحساس بالسكينة وقالت:

ـ وماذا أيضًا..

ـ قال لى:

ـ إنه يتمنى أن يعود ليجلس أمامك ويبتسم.. كى ترسمى الصورة.

وسارت مى.. فى صمت.. إلى غرفتها وأمام الصورة.. وقفت فيما يشبه الصلاة.

ـ كنت رائعًا يا عمار..

ورفعت عينيها إلى الصورة.. وإذا بابتسامة رقيقة ـ ترتسم على الشفتين.

وهمست "مى":

ـ ابتسم.. ابتسم يا عمار.. إن ابتسامتك إشراقة.. على طريق النصر..

واستقر خاتم عمار.. فى أصبع "مى" لتتحسسه فى تعبُّد.. واستقر مسدس عمار.. فى كف "خالد".. يرفع المقبض ويعِّمد الساقية بالذخيرة.. ويسير مع "يحيى". إلى معسكر: تدريب الأشبال..

ويستمع إلى همسة فى أذنيه:

"المعركة طويلة.. طويلة يا خالد.. معركة أرض.. وحق.. إذا نحن لم نستعده فأنتم من بعدنا.. وأولادكم من بعدكم.. كل شىء يمكن أن يهون مع الأرض.. إلاَّ الأرض.. والوطن.

"أنت أروع ما فى الحياة.. وأنا أحارب من أجل الحياة.. ومن أجل كل ما هو جميل.. فى هذه الحياة"..

وكما رصد يوسف السباعى.. الواقع الوطنى.. فى رواياته.. كذلك رصد الواقع الاجتماعى.. بصورة تشمل كل ما فى الحياة، السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، والإنسانية، وجاء كتابه الشامل "مصر.. **المشكلة والحل**" صورة صادقة، لما يعانيه الحاكم.. والمحكوم والشعب.. وما يمكن أن تصل إليه مصر بحلول جذرية، بالتعرف إلى أسباب المعوقات والسلبيات التى تعوق تقدمنا الاجتماعى.. وفى

هـذا مـا يؤكـد، تفاعل هـذا الأديب مـع بيئته وأهـله وبلده، وشرح كل القضايا الـمصيرية شرحًا مبسطًا.. وقدم لـها الـحل الـممكن تنفيذه.

منذ الإهداء... الذى قدمه "يوسف السباعى" على واجهة هذا الكتاب... نتعرف على الجواب.. إذ يقول:

"إلى مصر.. فى تحفزها للانطلاق.. عبر الحواجز، والعقبات.. أهدى.. اجتهادات للحل.. كلامًا.. لو نفع الكلام".

ويوضح يوسف السباعى، صورة للمواطن الـمصرى، فهو كما يصفه، ويـحدد ملامـحه، يتميز بالبساطة، والإيمان بالله إلى أقصى حد، وهو مع كل شطحاته، ونزواته وغروره وجبروته الإنسانى يتضاءل فى النهاية أمام الله، ويهرع إلى رحمته، ويستند إلى قدرته ولهذا يصعب شده إلى مجتمع لا يرتكز أساسًا على الإيمان بالله ورسله.

كما يتميز المواطن المصرى كذلك.. برغم الطموح البشرى الطبيعى - بقدر كبير من القناعة، والإحساس بالرضا، بأقل القليل، وهو يغنى، بالقصعة على سقالة البناء، ويرقص وهو طفل على أبسط دقات الطبول.. وتريحه وتسعده أنفاس الشيشة فى جلسة على مقهى عقب يومه الطويل الشاق.. وهو من أجل هذا.. طويل النفس، فى الصبر.. واحتمال أقسى أنواع المشقة.

والمعالـم المتميزة فى المواطن المصرى.. أنه يتميز بالذكاء، ويتميز بالترابط والتساند، ولكن هناك عيوبًا كثيرة تقف دون ارتقائه وتشل تقدم المجتمع وتعجل بانهياره.

حدد يوسف السباعى هذه العيوب التى من أولها:

- عدم الانضباط - وهو يطالب بقوانين تحقق مجتمع الضبط والربط، من أجل القضاء على روح الإهمال والتسيب الموجودة حاليًا.

فإن بناء مجتمعنا الجديد - وأيًا كان شكله - لا يمكن أن يتحقق إلاَّ بشعب يعرف "الضبط. والربط".

ومن أسس بناء المجتمع الجديد. مجتمع الرخاء والحرية، والكرامة بالعلم والإيمان هو:

- إنشاء مؤسسات حرة.. فى حدود القانون. وأول ما يجب أن يتوافر لهذه السلطات. لممارسة مسئولياتها هو تأمينها من نفوذ مراكز القوى، بالإغراء أو بالبطش.

ومن هنا، تنشأ أهمية المعارضة.. وضرورة ألاَّ تكون هناك سلطة - أو شخص فوق المناقشة، وبذلك تشعر كل سلطة بأنها موضع الرقابة والحساب والمناقشة، على أن تحمى فى الوقت نفسه وبحزم.. وصرامة من التشهير، والحملات العابثة المغرضة..؟

وإننا إذا بحثنا عن جذور المشكلة المصرية فى هذه المرحلة، فيمكن تلخيصها بغير إخلال بحقيقة مضمونها.

فى أن الشعب المصرى يواصل التكاثر. فى الوقت الذى لا تتزايد فيه موارده لمواجهة احتياجات هذا التكاثر.

ويجول يوسف السباعى فى أعماق تلك المشكلة، ويعرض أبعادها المختلفة ويضع تصوراته لحلها، والتخلص من آثارها الخطيرة..

فمعركة التنمية والتقدم هى هم البشر.. وأول حل لمشكلة الإنسان هو التدريب المخطط، لا العشوائى.. أما الأرض فيجب أن نواجه مشكلتها. مشكلة التجمع فى الشريط الضيق حول النيل والذى لا يمثل أكثر من 3٪ من مساحة مصر، يجب أن نناقش الانطلاق إلى الصحارى، وإلى خلق مجتمعات جديدة لحياة أفضل وأكثر عصرية، وتحضُّرًا.

إن طاقة الإنسان المصرى ممتازة.. فهو قادر على أن يفعل إذا ـ درب ـ أى شىء، ولكن المشكلة كما يحللها يوسف السباعى أننا نسير فى درب تقليدى. لـم يعد هو الصالح لمستقبلنا، وندور به فى حلقة مفرغة، من محاولة زيادة الأجور ـ دون أن تقابلها ـ زيادة فى الإنتاج.

إننا نحتاج إلى "ثورة فى أسلوب الحياة.. ثورة انضباط.. نعرف فيها أنواع عمل جديدة غير الجلوس على المكاتب.. وشرب القهوة وقراءة الصحف.. مطلوب منا الالتزام فى كل شىء.

وهذا هو يوسف السباعى، مؤرخ الثورة الوطنية ـ والثورة القومية، والثورة الاجتماعية التى حلل فيها كل شىء، التعليم. القوى البشرية ـ الانضباط وخدمة الشعب.. وأمن الشعب بكتابه الثورى الشامل.. "مصر.. المشكلة.. والحل".

لقد أوضح يوسف السباعى، معالـم مشاكلنا الـحقيقية وإنـها معركة ضارية، يجب أن نخوضها لأمن وسلام وتقدم البشرية، وهى معركة لا تقل مشقة عن معركة أكتوبر.

وأبناء مصر قادرون.. قادرون..

والذى خاض معركة أكتوبر هو جيش مصر.. وهم قادرون على خوض معركة الحاضر والمستقبل. بالاخلاص الدءوب نفسه بروح التضحية والعطاء، والفداء نفسها.

الفصل الخامس

أديب الحياة

يقول يوسف السباعى:

"إن الأدب فى إقليمه.. مؤسسة لتنمية وجدان الإنسان المصرى، وأى تدمير.. لروح الأديب، يجب أن يعامل على أنه "جريمة قومية".

فى الأدب.. وفى الحياة..

هناك فريق ينزع إلى إدماج الأدب فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية.. رجاء النهوض بها على قاعدة العدل.. والإخاء البشرى.

وفريق آخر.. ينزع إلى خدمة الأدب الخالص، والفن الخالص.. رجاء النهوض بحياة الفكر .. والروح والوجدان..

وكل من الفريقين ـ إنسانى النزعة. وإن اختلفت وسائله.. أما الغاية فهى تقدم الإنسان، فى وحدته الكاملة أى فى جانبيه، المادى والروحى.

والكاتب والمفكر، والأديب.. أقدر الناس، على فهم.. وتحليل النفس البشرية بما أوتى من موهبة، تستشف ما وراء انفعالات وتضاربات النفس، بقدرة تلتقط ذبذبات هذه النفس، فيحللها ويكيفها.. وفق ظروفها. ويضعها فى مكانها الحقيقى.

وهكذا كان الكاتب والأديب. "يوسف السباعى" على إدراك تام، لـخبايا النفس البشرية، مـما جعله يفهمها ويـحللها فى مـجموعته القصصية "هذه النفوس".

فلقد عبر يوسف السباعى عن النفس البشرية.. وخباياها.. أبلغ تعبير.. وعرض لنا ألوانًا من طبيعة كل نفس.

فالنفس المدمرة.. يقول عنها:

"إنك إذا فعلت من أجلها كل شىء.. فلن تتقبل أى شىء، وسوف تدمرك، وفى النهاية لا تجد من تدمره.. إلاَّ نفسها".

وحلل كل نفس بطبيعتها. وآمن بأن هناك نفوسًا راضية كريمة، يطهرها "الحب". فتضحى من أجل غيرها راضية.. مسرورة.

ويعيش بنا السباعى، مع النفس.. غموضها، خباياها، وأسرارها، دوافعها؛ ونوازعها ـ فيقرر أن النفس البشرية لا تـحب الـخير.. إلاَّ إذا كان فى صالـحها، إنـها تكره الظلم.. مادامت مظلومة، ولا تقبل الـجور إذا ما وقع عليها، فإذا أضحى الأمر بيدها استساغت الظلم، وأحبت الـجور إن شعار النفوس هو..

"نفسى أولاً.. أو نفسى فقط".

وينادى السباعى نفسًا يتمنى أن يجدها.. ولا يجدها، ليبحث عنها، عن تلك النفس المثلى التى تبدو كسراب خُلَّبٍ، لا يستطيع الوصول إليه..؟

ينادى تلك النفس الـجميلة. الطيبة.. الـهادئة الـحنون، الكريمة

الرحيمة. ينـادى تلك النفس، التى تعفو عن الـخطايا ولا تـخطىء.. وتغفر الـذلل ولا تـزل.

يريد النفس التى يجد عندها حبًا.. بلا أنانية.. وتقبل أن تمنحه.. دون أن تأخذ منه.. وظل طوال حياته.. ينادى.. وينادى.. وينادى.. على تلك النفس التى ظل يبحث عنها.. ويبحث عنها.. فى هذه الأرض عبثًا..

وهذا.. "طاغور" شاعر الهند العظيم.. وفيلسوفها، فى مناجاته لله.. وطلبه الرحمة.. والراحة لنفسه، هذه النفس التى يحار الإنسان فى فهمها يقول:

"يا رب: إذا أعطيتنى المال..

فلا تأخذ.. سعادتى..

وإذا أعطيتنى القوة..

فلا تأخذ.. عقلى..

وإذا أعطيتنى.. نجاحًا

فلا تأخذ تواضعى..

وإذا أعطيتنى تواضعًا..

فلا تأخذ، اعتزازى بكرامتى..

يا رب.. إذا أسأت إلى الناس..

فامنحنى شجاعة الاعتذار..

وإذا أساء إليَّ الناس..

فامنحنى شجاعة العفو..

يا رب.. اجعلنى أحب الناس..

كما أحب نفسى..

واجعلنى.. أحاسب نفسى..

كما أحاسب الناس.

ـ لقد فهم "طاغور" نوازع النفس البشرية وخباياها.. فبدأ بنفسه هو.. فمتى عرف الإنسان نفسه.. فهم الدنيا على حقيقتها.. وغفر للناس.. وسمح لهم.. بما يسمح به لنفسه.

وهدوء النفس واستقرارها.. واستكشاف خباياها.. لا يصل إليه إلاّ كل من تمكن، من السيطرة على نفسه. فالحقد مثلاً.. هو أكبر سبيل إلى التوتر والقلق.. ذلك الحقد الذى يملأ قلوب الحاقدين بحيث يجعلهم لا يستمتعون بلقمة هنية يأكلونها.. فينقلب هذا الحقد إلى قلق دائم، فينخر فى القلوب ويدمر النفوس.. ولا يستمتعون بما فى أيديهم لتركيزهم فقط، على ما يملك الآخرون.

والشخصية، هى مفتاح كيان الإنسان، والشخصية هى مقياس الرجولة والكرامة، والشخصية هى بقدر ما تترك من أثر وتأثير فى النفوس فيمن يتعامل مع هذه الشخصية. هى التى تترك الانطباع السيىء.. أو الحسن.. فى النفوس..

وفى حياتى العملية.. ورحلتى فى مشوار حياتى الأدبية، وتعاملى

مع شخصيات عديدة فى المجتمع، صادفت أنماطًا ونوعيات من "الشخصيات" فى شتى صورها.. وأشكالها.

ـ منها.. الشخصية الانطوائية.. الشخصية الاكتئابية.. الشخصية غير الناضجة وجدانيًا.. الشخصية الازدواجية.. الشخصية العدوانية.. والشخصية السيكوباتية ـ أى الشخصية الشريرة ـ ونادرًا ما صادفت الشخصية السوية.. القوية.. الناجحة.. الواثقة.. شخصية الرجل الذى يعرف ما يقول.. وماذا يقول. ومتى.. وأين يتخذ القرار..

وأكثر ما لقيت.. ثلاث شخصيات.. هى السائدة فى مجتمعنا الحالى.

ـ الشخصية الازدواجية ـ أى التى تظهر غير ما تبطن.

ـ الشخصية العدوانية ـ التى تقابلك بالعداء الدائم.

والشخصية السيكوباتية.. التى تدوس بأقدامها على البشر.. لتحقق غرضها.. ولنفسها فقط.. دون الشعور بآلام الغير..

"ولكن.. هذا شر خطير.. فكل ألوان الطموح مشروعة.. إلاَّ تلك التى تعتمد فى الارتقاء بصاحبها، على اتخاذ آلام البشر.. وحسن نياتهم سلمًا لها..

كل هذه الشخصيات صادفتها، وبمدلول بسيط، وجدت أن "شخصية يوسف السباعى" هى "الشخصية السوية" الإنسانية.. القوية. الناجحة، ذات القيم والمبادئ السامية..؟

شخصية السباعى.. هى التى عرفناها، فى القيادة، فى الانضباط، فى الالتزام فى الإصلاح الاجتماعى.. فى الثورة الثقافية الكبرى..

شخصية مصرية صميم، نبع صاف من طبيعة مصر الخيرة السمحة، الطبيعة الإنسانية.. التى تحب الطبيعة، وتحب كل ما هو جميل وخيرٍ فى هذه الحياة، وما كتابته الرومانسية إلاّ نبع من صفاء النفس التى تنضح ما بداخلها من شفافية وصدق، وطهارة روح.. وصفاء نفس، وما اتخاذه لكل قرار حاسم.. فى حياته العملية.. وفى مناصبه القيادية، إلاً بسبب الشخصية القوية الواثقة الناجحة، فى كل عمل، وكل مجال. وهو كما يقول عن نفسه:

"خير للإنسان. أن يصاب بعاهة فى الجسد، من أن يصاب بعاهة فى النفس.. أو الخلق، فعاهة الجسد.. تبعث الناس على الرثاء لصاحبها، والعطف عليه..

أما عاهة النفس.. أو نقص الخلق.. فلا يصيب صاحبها.. إلاً الازدراء والاحتقار والبغض والنفور.

وشخصية الأديب.. المؤمن برسالته.. شخصية تستطيع التأثير فى الناس.. وترك الأثر.. والانطباع، طويل المدى.

كل الشخصيات التى تؤدى رسالة لمجد الوطن، وصحوة الفكر، وإشعال روح الحماسة هى شخصيات قوية ناجحة. وقد بعث مصطفى كامل الصحوة فى النفوس، وأحيا الأمل فى الصدور لأنه شخصية هزت الأعماق، وغمرت المشاعر.. واستولت على القلوب، هى "الصحوة الكبرى" التى تأثر بها كل أدباء وكتاب مصر هى "عودة الروح" كما سجلها توفيق الحكيم.. هذه الشخصية المصرية.. التى بعثت الوعى الوطنى والثقافة، هذا الوعى الذى بدد اليأس، وأيقظ ضمير الأمة، وأنشأ مدرسة فى الوطنية.. وفى المثل..

وفى القيادة.. وفى الأدب.. تتلمذ عليها الكثيرون.. ومنهم "يوسف السباعى".

كان شعار.. مصطفى كامل.. "لا معنى للحياة مع اليأس.. ولا معنى لليأس مع الحياة".

هناك الكثير من الشخصيات المصرية عمالقة فى الفكر، وفى الأدب، وفى السياسة غيروا وجه التاريخ، يقدسون المثل.. ويدينون بالمبادىء المصرية الأصيلة، يجندون أنفسهم لأسمى التضحيات فى سبيل الحرية، هم رجال ثورات. فى الفكر وفى القيادة، وفى الزعامة.. ومصر غنية بهم.. وما "جمال عبد الناصر" مفجر ثورة 23 يوليو 1952 ـ إلاَّ من هؤلاء العباقرة، عباقرة التاريخ، هذه الثورة التى غيرت مجرى الحياة.. وسجلها أديب من أدباء الحياة.. يوسف السباعى فى رائعته "رد قلبى".

فلقد كان الأدب.. فى الحرب.. وفى السلم هو الشرارة الأولى، لثورة النفوس.. قبل الأشخاص، وكان هو المحرك الأول.. والفعال، لكل هزَّةٍ انفعالية يثور بها شعب، فكم من روايات وأشعار كانت سببًا فى نصر أو هزيمة.

وهنا تأتى، "فنية الأديب.. ودوره فى تحريك منابع هذه الثورات، فهى المؤشر، والمحك لهذه الثورة.

وكانت الرواية.. عند يوسف السباعى. هى دنيا قائمة بذاتها يصول ويجول فيها بالقلم كما يجول فيها الجندى بالسيف.. فقلم الأديب هو سيفه. وسلاحه.. فى "معركة الفكر".. وبالأبعاد المترامية الأطراف.

من حيث التشكيل الفنى، والحبكة الدرامية، ورصد للواقع فى الحياة المعاصرة.. بكل معانيها، وصدقها.. والمتعة الفائقة فى تسلسل الأحداث، والحوار كان هذا هو "قلم يوسف السباعى" فهو يعيش الرواية بكل مشاعره الفياضة، وبكل إرهاصات حسه الفنى، يسير فى دروبها، ويتناول أحداثها، يمزج فيها الوجدان الشفاف، بالوعى الصادق.. ويلمس مواطن العفن، فى مجتمع فاسد بتندرٍ وملاحةٍ فكهة، حتى يستطيع القارىء أن يهضم هذا التسوس، وهذا العفن، وهذا الضياع.

فنراه فى "نائب عزرائيل"، يتمايل بالقلم، ليبرز أنواعًا من البشر.. يعيثون فى الأرض فسادًا، يستحقون أن تبتر أرواحهم، ونراه يتمايل بالقلم، ليقدم لنا أسماء، بها تورية ومعنى، فهناك مثلاً ـ جابر بك كيرشو ـ ويجعل هذا الجابر. يموت.. ويأخذ عزرائيل روحه، ليموت بالتخمة.

ومحمود الفنط يتمايل ويتخبط وتلف من حوله النساء، تلف الملاية، وتلف وتدور فى انتظار معاكسات من هم على شاكلة محمود الفنط.. وكل الأسماء لها معنى.. ولها مغزى.. ولا تكتب اعتباطًا.

ومن هنا.. نرى.. أن مذهب يوسف السباعى الأدبى هو "مذهب الحياة" أو.. "أدب الحياة".. مزج الحقيقة بالخيال. بالآخر. بالواقع. وكل غايته من هذا.. هو الوصول إلى المثالية المطلقة.. للناس وللحياة.. وللوطن.

أيضًا نراه فى "نائب عزرائيل" قد رسم صورة للزعيم.. وللثورة.. وتخيل.. وتمنى. لهذه الثورة.. كان هذا التصور فى عام 1947 حينما كتب هذه الرواية.. "نائب عزرائيل".

لقد كان السباعى يتنبأ بثورة شعب. كان ينادى بالانقلاب، والتمرد على الفساد والرشوة والاحتلال.

وهذه الصورة نفسها للثورة كتبها السباعى فى كتابه "البحث عن جسد". فلقد وصف الثورة بأنها تبدأ على نطاق ضيق، زعيم يجمع حوله.. بضعة أفراد.. يؤمنون برسالته. يرشدهم إلى تعاليمه المخلصة الأمينة، ويبث فيهم دعوته الصالحة الطيبة.

لقد عاش السباعى.. أحلام الثورة.. وتخيلها فكرة، كان يحلم بظهور زعيم منقذ.. يدعو إلى الإصلاح والحرية.

وإننا أبدًا لا ننسى مقاله الذى نشره بجريدة الأهرام يوم 29 يناير 1977. الذى يقول فيه:

"أين مصر..؟"

- أين مصر.. وأبناء مصر.. الذين عبروا القناة.. وسط جحيم القذائف واللهب. وعلى شفاههم: "الله أكبر.. الله أكبر.." ليردوا لمصر اعتبارها.

"وكيف توجد مصر..؟"

- توجد مصر، بأبنائها المخلصين. توجد مصر.. فى صفاء النفس، والعقل، بتنظيم جاد، مخلص لأبناء مصر.. تنسى فيه المراكز

والمناصب.. يكشف فيه الإنسان عن حقه ويعرف أن.. "الحكم.. والحاكم.. ما هو إلاَّ مهمة شاقة.. من أجل تجميع مصر".

إن أعمال يوسف السباعى.. تؤكد دائمًا.. أن مصر كانت تعيش دائمًا وأبدًا فى وجدان الكاتب، وأنه قد حاول، مزج الواقع الحى، بالخيال الجميل، وأدمج مجد الحضارة القديمة فى عظمة وروعة الإنشاء الحديث ما بين معابد الفراعنة، وما بين تشييد السد العالى فى أسوان كما فى مسرحيته "أقوى من الزمن" عام 1966.

ولقد حاول يوسف السباعى، أن يشرح كل المفاهيم، والقيم التى تعارف عليها الناس، فى ظلٍ مستتر من السخرية والنقد، كما فى مسرحياته.. **وراء الستار عام 1952** ـ ومسرحيتى ـ **أم رتيبة.. وجمعية قتل الزوجات.**

لقد تغلغل "يوسف السباعى" فى شرايين المجتمع، فهو أديب من أدباء الحياة، عاش فيها، واتخذ كل المذاهب والمدارس الأدبية، ليتوصل بها إلى النقد الاجتماعى البناء.

ولم يبعد يوسف السباعى عن مزج التجربة الوجدانية.. بالواقع.. وتشريح العواطف الإنسانية والسياسية، وتصوير الأحياء الشعبية والأخلاقيات التى كانت سائدة فى مجتمع.. ما قبل ثورة يوليو.

إن مدرسة "يوسف السباعى" الأدبية هى:

"مدرسة الحياة، والإنسانية، مدرسة مترامية الأطراف مشعة بالمحبة، عامرة بالصفاء، والإيمان، لتنتج منها فى النهاية ـ مدرسة جديدة ومذهب جديد فى الأدب هو: "الأدب المثالى".

خاتمة

ماذا يتعلم الشباب من يوسف السباعى

وفى الختام نسأل: وماذا يتعلم الشباب من فكر.. وأدب.. "يوسف السباعى"؟

الجدية، الموضوعية، الالتزام، فى حياتنا الثقافية..

- الحب، والحرية، والكرامة.

- الإيمان بالمثل، والقيم، والتفانى فى حب مصر.

فتعانق بالحب.. مع الشباب. وتلاحم معهم بعلاقة من الحب والاحترام، فكان التجاوب مع جيله، وجيل الشباب.. واحتضن كل المواهب الشابة، وقاد الإبداع الخلاق.. بإرساء أسس الفكر القويم، وجاء جيلنا ومن بعدنا، ممن قدم لهم السباعى، عطاءه الفكرى.. وأورثهم احترام الكلمة، وحب العمل.. وعشق الحرية.. والتفانى فى حب مصر.. ليكمل رسالته الأدبية.

وتمكن "يوسف السباعى" من خلال رحلته الطويلة.. فى عالم القصة.. والرواية. من توصيل فكره، وفلسفته إلى أكبر عدد من الناس، متفاوتى الثقافة، وأيقظ فيهم شعور الانتماء، والالتزام.

والكاتب أشد التزامًا بقضايا وطنه.. أكثر من غيره من الناس.. فكان التزامه بقضية فلسطين، فى "**طريق العودة**" وكان التزامه بالثورة فى "**رد قلبى**".. وإحساسه الفائق بالمسئولية وعشقه للحرية، مما أورثه

للشباب من جيل عرف معنى الكرامة. ومعنى الحرية، وقيمة الالتزام.

الالتزام الفكرى.. وصدق الكاتب.. مع نفسه ومع قلمه، ومع شعوره بأمانة الواجب، وشرف الكلمة.. وحرية الإنسان، وكرامته التى لا حياة بدونها لأى كاتب، وإذا ما خان صدق الكلمة وأمانتها فى تسجيل إرهاصات إبداعه القصصى والروائى.

من مثل هذا الصدق.. ومن عمق وأمانة تسجيل أحداث الوطن.. بشعور صادق. وأمانة فكر.. وتجاوب.. وتعايش.. ومعاناة، وحب، وألم، جاءت كل أعمال السباعى.. صورة نابضة حية.. لنبضات الوطن، وجراحاته، فأعطى الصورة المثلى.. للالتزام أمام الأجيال المقبلة، ممن يمارسون الأدب، وليتعلموا خطورة الرسالة الملقاة على عاتقهم، بلا تهاون، أو مغالاة. فشباب الأدب هم "جنود الكلمة" والجندى يموت فى ساحة الوغى، إن لم يحقق النصر وينال الحرية، تمامًا مثل الكاتب الذى ينطفىء اسمه، إن لم يحقق انتصار الحق، وبقاء الكلمة التى لا تصل إلى قلب القارئ، إن لم تكن نابعة من.. "مشاعر صادقة.. وإرهاصات قلم صادق، والتزام تام.. بتصوير أعماله بأصالة وعمق.. وإيمان بشرف وأمانة هذه الكلمة.

فعنصر "الالتزام.. ضرورى.. وجوهرى فى مسئولية الكاتب.. وتسجيله الأحداث. فور قيامها بأى عمل أدبى، وهذا ما تعلمه قطعًا ـ الشباب" وما سار عليه.. خصوصًا بعد قراءته لأعمال يوسف السباعى التى سجلت حقبة معروفة من تاريخنا المعاصر.

وكان الحب، والتسامح، والتواضع والكرامة، وعزة النفس، والإباء والشمم.. والحرية، من أبرز وأعمق ما تعلمه الشباب بمعايشته لفكر وأدب. "يوسف السباعى.. أديب الحياة..".

ملاحق

1 ـ رسالة يوسف السباعى إلى أمه

2 ـ حديث مع يوسف السباعى حول إخوة الكاكى

إلى أمى

"لا يضايقنى شىء.. كحزنك.."!!

إننى أكتب إليك للمرة الأولى فى حياتى، وما كنت أظننى بكاتب، لولا أن سئلت أن أكتب إليك.. أكتب وأنا حائر عاجز، لست أدرى ماذا أقول لك وكيف أحدثك، وأنا أحب دائمًا أن أرضيك، وأن أبعد عنك كل ما يؤلمك وما يغضبك.

ولكن وسيلتى فى إرضائك كانت دائمًا عملاً وليست قولاً، فأنا مقل فى حديثى إليك، أخجل أن أجلس إليك، لأعبر لك عن مشاعرى نحوك أيا كانت، ولا يضايقنى شىء كحزنك، يضايقنى إلى حد يجعلنى أقسو فى لومك، على حزن، لست أجد ما يبرره.

وعندما تبعدنى عنك مشاغل الحياة، وتطول غيبتى، إن لم تزد بضعة أيام، تنظرين إلىَّ لائمة وتقولين:

ـ ليتك تعذر، وليتك تعرف قلب الأم..!!

وأصبحت أحس بعجزى عن مجابهة مشاعرك بالكلام دائمًا، أعجز عن ترجمة مشاعرى نحوك، إلى ألفاظ، أهو خجل، أم إحساس

بأنى لم أعد طفلاً يحن إلى أحضان أمه؟ وأنىِّ يجب أن أظهر أمامك بمظهر الرجل، لست أدرى.

ولكن.. الذى أدريه هو، أن ألفاظى لك دائمًا تنساب مع مشاعرى نحوك، وبعد ذلك أجلس لأكتب إليك رسالة، لتكون أحد نماذج الأبناء إلى أمهاتهم.

فأنا قد أصبحت مشهورًا، وأكثر من هذا مشهور ككاتب، ورسالتى إليك يجب أن تكون شيئًا ما.. ومع ذلك، أحس بأنى أقف بباب رسالتك، والألفاظ تتعثر على قلمى، كما تعثرت دائمًا على شفتى، ولست أدرى ماذا أقول لك؟ وما الغرض من الرسالة؟ أحقًا أكتبها لك، أم أكتبها لأعرّف الناس بك؟!!

أفى حاجة أنت لأن تعرفى قيمتك من نفسى، ومعزتك عندى لا.. لا أظن. فأنت تعرفين قيمتك، وتعرفين قدرك، وما أظننى خذلتك مرة واحدة فى إشعارك بهذا القدر، وهذه القيمة، إذن فأنا أكتب لأعرِّف الناس بك، أو على الأصح بنا كأم وابن.

والمسألة لم تعد تحلها بضع ألفاظ مناجاة وحنان، بل باتت تحتاج إلى تمهل، وتأمل، تحتاج إلى وقفة واستدارة، ونظرة طويلة عبر السنين، فى طريق العمر، وفى الطريق الطويل، تبدين لى شاهقة عملاقة، تبدين فيها العلامة المميزة الكبرى لهذا الطريق!

رفيقة العمر، رفيقة اثنين وأربعين عامًا، لم تختف آثارك على طول الطريق، لحظة واحدة، آثار جانبية فعالة تجعلك واضحة فى كل معالم الطريق، كجزء لا يتجزأ من حياتى، وذكرياتى.

فى بداية الطريق أذكرك كمسئولة عن حياتى، عن طعامى، عن نومى، عن لعبى، عن دراستى، وتطوى خطواتنا الطريق، وينمو الطفل خطوة بعد خطوة.. وأنت.. أنت لا تشعرين به إلاَّ رضيعًا بين ذراعيك تصرين على مسئوليتك الكاملة نحوه، لا تطمئنين على زاده، إلّا إذا أطعمته، ولا على نومه إلَّا إذا غطيته، ولا على صحته، إلَّا إذا رعيته..!!

وأذكر وحدتك ولوعتك، وارتباكك وجزعك، عندما وقفت فى الطريق وحدك، بالصغار الثلاثة، وقد تركنا أبى ورحل..!!

أذكر دموعك السائلة أبدًا، وأنت تجلسين وسط البياضات السود التى صبغتها بالسواد، حزنًا على أبى، أذكرك كقوة رائعة تسير بالصغار الثلاثة فى وحشة الطريق، فى صبر باكٍ، وتصميمٍ موجع!!

أذكر أشياء كثيرة، هى معالم حياتى، وأذكرك فى أروع صورة، صورة يمكن أن تكون نموذجًا لخير أنواع البطولات، بطولة صامتة مستقرة، متواضعة، لا تحس بنفسها، ولا يحس بها أحد، مغرقة فى سواد الثياب، وسواد الطريق، دامعة العينين فى صمت، تسيرين بالثلاثة اليتامى خطوة خطوة، فتصعدين بهم السفح، فى إصرار وعزم!!

وتطوى السنون بكم الطريق، وأنت صامدة صابرة وتصيبكم السنون بأشياء كثيرة، خليط من كل ما يحدث للناس فى حياتنا، من نجاح ومرض، وشقاء وسعادة، ومازلت تبدين فى الطريق على ما أصابك من وهن.. كأبرز معالمه، ومازلت ترين أولادك الثلاثة

صغارًا، لا يشبعون إلاّ إذا أطعمتهم ولا يصحون إلاًّ إذا رعيتهم، وهم يحاولون جهدهم أن يردوا بعض جميلك، ولعلهم أفلحوا وأرضوا، فإن لم يكونوا فعذرهم أن عملك البطولى أجلُّ من أن يرد، وأن لهم فى حبك ما يتسع لغفران كل تقصير..!!

وبعد: هذه هى رسالتى إليك، أترانى قد أفلحت فى أن أخرج عن صمتى، وعن عجزى، وأن أحدثك مرة، بما فشلت أن أحدثك به طيلة الطريق، لا أظن، فلكى أكتب إليك رسالة كاملة يجب أن أروى قصة حياتى، قصة الطريق، التى كنت أنت فيه أبرز معالمه..!

إخـوة الكـاكى

ويجدر بنا هنا، أن نسجل حديثًا ليوسف السباعى سجله، فى نوفمبر 1973 ـ يتحدث فيه.. بروح الأخوة إلى "إخوة الكاكى": جاء فيه:

منذ أن وقعت كارثة النكسة، وأنا أشعر بأنها قد ألقت على كاهلى حمل مذلتها مضاعفًا.

أحسست بالحمل، كمواطن مصرى، عربى.. تسابق الشامتون من الغرباء، بل وحتى من الأهل فى السخرية منه، والشماتة فيه، واتهموه بكل ما أخفض قدره وقلل شأنه، وجعله أهلاً.. لكل ما حل به..

أحست بحمل مذلته كعسكرى، أمضى عشرين سنة من عمره ـ لعلها زهرته ـ بين من سميتهم "إخوة الكاكى" (والذين شعرت يوم خلعت حلتهم الكاكية، كأنى أنزع جلدى) حمل ظالم حملهم فوق مرارة الهزيمة ومسئوليتها أمام الناس والتاريخ، واتهمهم ظلمًا، بأنهم من طينة هشة غير محاربة، وكأنهم فى الحرب نعامة هوجاء تفزع من صفير الصافر.

وأحسست بحمل ثالث، ككاتب يشعر بفداحة الظلم الذى وقع

على إخوة الكاكى.. ويحاول أن ينصفهم فى كل ما يكتب، يخطب الدليل من هنا، ومن هناك، "من أفواه الأعداء" تارة. (كما كتب فى سلسلة مقالات ما بعد النكسة فى مجلة آخر ساعة) ـ ومن أفواه الأخوة فى النضال، ومن وثائق الأحداث والمعارك، تارة أخرى.

وأهديت آخر ما كتبت ـ رواية العمر لحظة ـ إلى: "الجندى المصرى"، الذى تحمَّل آلام ـ نكسة يونيو ـ آلام تبعتها.. أهدى بعض ما يرفع عنه الظلم، ويرد اللوم أهدى نبض الحقيقة.. حقيقة كفاءته وقدرته وشجاعته..

أهدى إليه.. بعض عمله وهو خير ما ينصفه أمام التاريخ وقدمت الكتاب بقولى:

"إن هذه القصة تقع أحداثها فى.. أواخر عام 1969 ـ وأوائل ـ 1970. خلال الفترة التى سميناها.. بحرب الاستنزاف..

ولقد سجلت هذه الفترة.. أروع بطولات الجندى المصرى، فى معارك العبور، وضرب المدفعية، وعمليات القناصة، وتوغل.. "الكوماندوز" إلى أعماق مواقع العدو..

وفى معارك الجو، والبحر.. التى أكدت قدرة الجندى المصرى.. فى المواجهة ومنحت العدو أيامًا عصيبة، وأهدته، أكبر قدر من الخسائر.

ومن أبرز المعارك.. التى خاضها الجندى المصرى.. وقتذاك، معركة "شدوان" الجزيرة الصخرية ذات الشعب المرجانية التى تقع فى البحر الأحمر. على مدخل "خليج السويس" فى الشمال الشرقى.. للغردقة، والجنوب الغربى لشرم الشيخ.

كانت المعركة.. رمزًا لصلابة الجندى المصرى.. وجرأته وفدائه.

ولقد أحسست بضمير الكاتب أن تلك الفترة المشرقة فى تاريخنا لا يمكن لأدبنا أن يعبرها فى صمت، وحاولت من خلال الرواية أن أقول شيئًا أنصف به الجندى.. والأدب المصرى أمام التاريخ وقلت فى نهايتها.. على لسان.. أحد الأبطال:

"ملأوا أنفسنا بالإيمان، بأننا.. يومًا ما سنثب على الضفة الأخرى.. لنحرر الأرض، ونستعيد الكبرياء ونسترد الكرامة، ونؤكد للعالم أننا شعب لم يذل، أننا نعيش بالأمل.. نعيش بهذا الأمل، وهذا اليقين.

وعلى لسان البطلة للضابط البطل: "عمرك لن يذهب سدى أنت أعز الناس على هذا البلد، أنت ذخيرة مصر.. الجرعة.. أنت السند. وأنت الخلاص.

كنت أحاول أن أنصفهم.. ليقينى بقيمتهم وإيمانى بقدرتهم وقدرهم.

حتى جاء يوم 6 أكتوبر ووجدت الأعباء تنزاح عن كتفى، واحدًا بعد واحد.

أنصف "إخوة الكاكى" أنفسهم ولم يعودوا فى حاجة إلى إنصاف.

كنت أشعر بفداحة الظلم الذى وقع عليهم، وحمَّلهم مسئولية هزيمة لا ذنب لهم فيها، سوى أنها كانت قدرهم، هزيمة بغير معركة، أنصفوا أنفسهم بأنفسهم، وقدموا أروع صفحات البطولة.. ناصعة.. مشرقة، إلهامًا مبسوطًا فى كرم لكل صاحب قلم أو ريشة، يغرف منه ليسجل فى التاريخ سطوره ولوحاته.

ورُفع عن كاهلى.. عبء المذلة كعسكرى.. وأنا أجد إخوة الكاكى، ينطلقون فى حزم وقدرة وإصرار، ليقولوا للظالمين، "هذه هى حقيقتنا".. وهذا هو معدننا.. أُسْد حرب.. لا يفزعهم صفير صافر، بل يوقعون الذعر فى قلوب الأعداء.. ويجعلونهم.. بعد طول استشهاد.. نعامة.. تفزع. أو.. بغاثًا.. يستنسر.

ورفع عن كاهلى.. عبء المذلة.. كمصرى. عربى. شمت الأهل فيه، قبل الغرباء، واتهموه ـ لنكسة ـ أو ـ كبوة. بها زاد من تمرُّغه فى التراب.

ماذا أقول لأخى فى الكاكى، الذى نفض غبار المذلة عنا؟ الذى أنصفنا بعد طول ظلم؟

أنت هو.. أنت.. الذى أحسست به فى نفسى وفى قلبى، نصرك الله.. وأعزك بحق ما نصرتنا وأعززتنا.. وأنصفتنا.

لوسى يعقوب فى سطور

1 ـ المجموعات القصصية:

عيون ظالمة.. عذراء سيناء.. العذاب والصمت.. بحيرات الشك.. مذكرات امرأة عاملة.. خواطر أنثى..!

2 ـ الرواية:

أنت يا أيها الحب.. ظلال الحب (تحت ظلال الزيزفون).. هكذا الرجال.. أوتار الشجن.. شيء فى داخلى.. أمجد يوم فى التاريخ.. اعترافات مروى.. مذكرات شابة.. مذكرات شاب..!

3 ـ الشعر:

ناصر بلدى.. سيناء وفرحة اللقاء.. أحضانه ظلال.. هل كان حبًا؟.. أحلى أغنياتى.. (من الشعر الغنائى).. مسرحية.. ورجعنا لك.. تانى.. يا سيناء.. فلوكلورية شعرية..!

4 ـ الدراسات الأدبية والتراجم:

* الطفولة والمستقبل السعيد.

* الطفل.. والحياة ـ الطفل والمستقبل ـ الطفل.. والمجتمع ـ نحن لا نزرع الشوك.. ولكن نحصده.

* عصفور الشرق توفيق الحكيم ـ دراسات حول آثاره.. وأفكاره.
* نجيب محفوظ الجذور والثمار.
* الأصالة والمعاصرة فى فكر طه حسين.
* أدب وأدباء معاصرون.
* فكر.. وفن.. وذكريات.
* العودة إلى سيناء.. (دراسات فى الأدب الجغرافى).
* المرأة فى قصص وحياة الأدباء.
* الملامح الخفية.. لجبران ومى.
* أنيس منصور.. مفكرًا وفيلسوفًا.
* إحسان عبد القدوس.. والحب.
* صالح جودت.. حياته وشعره.
* محمد زكى عبد القادر.. معلمًا وفيلسوفًا.
* إبراهيم المصرى.. والأدب الإنسانى.
* يوسف السباعى.. أديب الحياة.
* لغة الأدب والشعر فى كتابات المرأة العربية.
* المرأة.. وعصر التنوير.
* من أنا..؟
* المرأة.. وآفاق المستقبل.
* المرأة.. والمجتمع.
* سلسلة كاملة من (الشباب والحياة). "13 جزءًا".

* هل الحب خطيئة..؟

* السعادة ـ انحرافات الشباب أسبابها وعلاجها.

* القوى الخفية (3 أجزاء).. إلخ.

5 ـ **الترجمة والتراجم:**

* دماء قلبى لك (رواية مترجمة عن الأدب الإنجليزى).

* قصة أنديرا غاندى (مترجمة عن الإنجليزية).

* دراكيولا (رواية مترجمة عن الإنجليزية).

* برج السموم (رواية مترجمة عن الإنجليزية لأجاثا كريستى).

* عطر من الهند (مجموعة قصص مترجمة عن الإنجليزية).

* حظك من الهند (دراسة فى علم الفلك والنجوم مترجمة عن الإنجليزية).

* فن لا يموت (دراسات وتراجم مترجمة لشوامخ الأدب العالمى.. والألمانى والهندى).

* معجزة الحب (مسرحية مترجمة من الأدب الإنجليزى وللمسرح العالمى).

* شواطئ نهر جديد، (مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب الروسى).

* إيما (رواية مترجمة لجين أوستن عن الأدب الإنجليزى).

* مجموعات قصصية مترجمة عن الأدب الألمانى ـ والأدب الأمريكى.. مع السير الذاتية والتراجم.

* ترجمة مجموعة من الكتب العالمية.

* ترجمة وتبسيط روايات عالمية للأطفال.. منها: أحدب نوتردام - البؤساء لفيكتور هيجو.. وغيرها.

6 - إنتاج أدبي للأطفال الناشئة والشباب:

* مغامرة جبال المنجنيز.
* رحلة إلى قلعة صلاح الدين.
* مغامرة فى قاع البحر.
* زيارة لمصنع الفيرومنجنيز.
* فارس الأحلام.
* شبح قلعة القمر.
* سر جبل النرجس.
* سر الموت المفاجىء.
* سر الصندوق المغلق.
* سر المنزل الأبيض.
* حكايات لطفلى (مجموعة من 20 قصة للطفل).
* تمثيليات لطفلى (سلسلة كاملة).
* مسرحيات لطفلى (سلسلة كاملة).
* ليالى عربية (قصص من ألف ليلة وليلة).
* أوبريت (الطفل والمستقبل).
* إرشادات للطفل (سلسلة كاملة).
* مجموعة قصصية للطفل.. شاملة الخيال العلمى.. المغامرة - الوطنية... إلخ.



(مشاهير الكُتّاب العرب)
(للناشئة والشباب)



الفارس الأديب / يوسف السباعى فى سلاح الفرسان



يوسف السباعى .. والسيدة دولت .. شريكة حياته



(مشاهير الكتّاب العرب)
(للناشئة والشباب)



السباعى .. وزوجته دولت .. وابنته بيسه



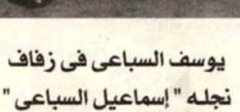
الفارس الأديب / يوسف السباعى فى شبابه


(مشاهير الكُتّاب العرب)
(للناشئة والشباب)



(مشاهير الكُتّاب العرب)
(للناشئة والشباب)





يوسف السباعى فى زفاف
نجله " إسماعيل السباعى "



يوسف السباعى وزير الثقافة والإعلام وثروت أباظة
يوزعان جوائز مسابقة نادى القصة الثانوية

المحتويات

(مشاهير الكُتَّاب العرب)

(للناشئة والشباب)





تصميم ورسوم: محمد حجي

لايعنى احتفاء الدار المصرية اللبنانية بالعظماء من كُتاب الأمة العربية مجرد استرجاع الحديث عنهم ، فذلك دور رواة السير الشعبية، لينتهى بها البسطاء فى ساعات الفراغ ، بل إننا نتوخى فى هذه السِّير مشوار العظمة نفسه ، وكيف كان .. بمعنى أننا نقدم هذه الشعلة المقدسة فى يقين صاحبها ، ونتتبع الجهود المضنية التى بذلها، ونكرّس بذلك أمام الأجيال قيمة العمل الإنسانى الجاد ، وكيف تكون نتيجته ، فأحيانًا لايرى الناس إلاّ بريق العظمة دون الوقوف عند الأسباب التى صنعتها .

وإننا نتوخى أيضًا فى سيرة الكاتب إمكانية استدعاء شريحة بكاملها من تاريخنا الثقافى ، بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية .. نتأملها بالرصد والدراسة والتحليل المبسط ، والأسلوب السهل الممتع ، وتلك غاية أخرى تُمكن الأجيال الجديدة من الوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتن
مانكون فى حاجة إلى تأصيل الفكر ، فى خضم التح
والاجتماعية التى يتحتم علينا مواجهتها



الدار المصرية اللبنانية